

الفصل الحادى والسبعون

بعد توديع ولاية إبريم توكلنا على الله فتوجهنا صوب فونجستان

بيان بمنازل وقلاع وبلاد وقصبات فونجستان

مضينا على شاطئ النيل فى أول الأمر ولكن النيل فى هذه المحلة يمضى مترجأً، وبعد ثمانى ساعات بلغنا بلدة وادى حلفه، وقد أقمنا خياماً هناك مع ثمانمائة رجل، وكنا ضيوفاً تلك الليلة فى هذا الوادى إن وادى حلفه سهل معشوشب، وعلى شاطئ النيل فى ظل شجرة جلست أنعم بالراحة، وعلى ضفتى النيل فيها صخر أملس، ومنها رأينا شلالات لا تمكن السفن من العبور، ثم رأينا فى يوم آخر سفناً كبيرة وهى تجرى، وغادرنا وادى حلفا هذا وعلى شاطئ النيل فى الشرق والغرب جبال وأدغال وأحراش مخوفة، فطوينا مراحل فى أرض كثيرة الأشجار وكثيرة الوحوش، وقضينا فى ذلك ثمانى عشرة ساعة، ولم نشاهد الشمس ستة أيام، لأننا كنا فى غابة أشجارها مثمرة وبها أشجار متقاربة من السنديان والسنت فهذه الأشجار حجبت عنا الشمس ولكن ليس فيها أثر لأشجار بلاد الروم، وفى اليوم السابع بلغنا قلعة صاى.

أوصاف قلعة صاى

هى آخر حدود ممالك آل عثمان، وبنها أبرهة فى جزيرة واسعة بنهر النيل، وقد توارثها ملوك بعد ملوك، وقد فتحها عمرو بن العاص عام ٢٢هـ بقيادة الأسود بن مقداد، ثم استولى عليها الفونج وفى عام ٩٣٥ وفى عهد سليمان فتحها أوزدمر بك، وهى قلعة حدود بناءً على معاهدة أبرمت مع الفونج، وقد وفا ملك فونجستان بعهدته إلى يومنا هذا فما استولى عليها مخالفاً لما تم الاتفاق عليه، وبما أنها واقعة على نهاية الحدود فإن التمردين من فونجستان وبريرستان لا يكفوا عن مناوشاتهم، وفى هذه البقعة يبدو النيل كأنه بحيرة واسعة، وهى تبدو حصناً حصيناً من الحجر الأسود مربع الشكل بناه شداد، وفى البداية بعد طوفان نوح بناها الملك صاى بن مصرام بن نقراوش وعمرها من بعده كثير من الملوك وبها الآن باب من الحديد يطل على النيل، وقد أحضر أوزدمر باشا

هذا الباب من بلاد الحبشة، وعلى عتبة هذا الباب صورة على الحجر الأسود لأبرهة، وكأنه حى ولما دخلت هذه القلعة حَيَّيتُ بإطلاق طلقة من مدفع، وقد رددت الجبال دوى طلقة ذلك المدفع التي حَيَّيتُ بها، ومضوا بسى إلى رئيس القلعة فجلست معه والله أحمد أنى رأيت رجلاً رومياً، وقال إن أعيان الولاية أكرموك، وبعد ذلك قدمت إلى رئيس القلعة وقائد الفرق المصرية السبع كما قدمت إلى أعيان القلعة رسائل كاشف إبريم، ورسائل حاكم جرجا، وفرمانات الباشا فزادونى تعظيماً إلى تعظيم، ثم تجولت سيراً على الأقدام لأشاهد القلعة والمدينة، ورئيس هذه القلعة هو من متفرقة مصر وله مائة وخمسون جندياً وثلاثمائة مستحفظ من فرق مصر السبع وفرقة موسيقية، وفى كل عام تأتى مؤنتهم ورواتبهم من جرجه، ولهم بارود أسود ومدافع، وليس فى القلعة شيخ إسلام ولا نقيب للأشراف، ولها قضاء يدر ستمائة أقة. وبعض المحلات ألحقت بقضاء إبريم، ويأتى نائب فى سفينة تحمل المؤن كل خمسة أشهر، وفى القلعة خمسمائة بيت صغير من القصب والحصير، كما أن بها جامع السلطان سليمان خان، ومسجد أوزدمر، وليس بها خان ولا حمام ولا مدارس ولا زوايا ولا مكاتب للصبيان ولا سبيل، وفيها عشرة دكاكين وبها ثلاث مقاه وثمانى حانات للبوze، ولكن فيها بوze مصفاة نقيه وخارج القلعة مائة وخمسون بيتاً من حصير ليس فيها حدائق، ولكن فيها كثير من البساتين، وفيها لذيذ من الشامم والبطيخ والخيار وعبد اللاوى وفيها نخيل هنا وهناك، وفى هذه الولاية تنشعب من النيل ترع وفى الصحراء يقيم عرب حلفا وهم يزرعون الذرة والكيله تنبت عندهم مائتى كيله وتربتها خصبة، وعرب حلفا هؤلاء قوم قبيحة وجوهم عابسون لا مذهب لهم وفى بعض الجهات يعلنون عصيانهم وتمردهم، ويحاربون عسكر قلعة صاى.

وفى كل المواقع صحراء فيها الأسد والنمر والفيل ووحيد القرن والغزال وتيس الجبل والعقاب والثعبان وأنواع الحُمُر، إنها مفعمة بالوحوش المخيفة حتى إنه يوجد داخل القلعة ثلاثة أسود وكل منها كان أسداً أسود له جثة الفيل، وأنا لم أشاهد السباع، وأثناء انحسار ماء النيل يعبره العَرَبُ بالجمال، إلا أن ما فى جوانب القلعة الأربعة عميق ولا

يمكن عبوره على الأقدام، إن جو هذه البلدة جميل صيفها وشتاءها معتدلان، وإذا ما نام الإنسان ليلاً وجد العمر الطويل لأن ريح النسيم لا تأتي إلى هذه البلدة حتى أرض حاسانكه ومدينة بلبيس والعريش ومنها لا يهب نسيم الصبا ولكن تهب ريح تياب وملسى. ولكن لا يؤثر في هذه القلعة ريح النسيم، وللنباتات والرياحين ريح طيبة تفوح وترد على متنسمها روحه، كان فيها الفتيات والفتيان متميزين بروعة الجمال، وإذا ما وقعت عليهما عين إنسان سرت الرجة في جسده، ولطيب هواء هذه البلدة لا يصدأ فيها الحديد وساحرات صحاريها لهن شهرة تطبق الآفاق، وكم من غريب رومي سحرته، والساحرات في إريم أقل منهن في بلدة أزرق جادو اللهم عافنا إنهن في هذه المدينة يسحرن الرجال حميراً وكلاباً ويطيرن الجرار والأواني في الهواء وحاكم قلعة صاي تحت حكم فونجستان وليس فيها غلمان من الروم إلا ما يجلبه النحاسون، وودعنا المستحفظون الباقون في القلعة ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشاب والشيخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جيادكم سوف تهلك من الحر والجوع ولا تأمنون عادية اللصوص من الزنوج، وسطوا إلينا الرجاء ألا نغضى فقلت إن الخوف لا يدخلني مطلقاً، لأن الله - تعالى - قال: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. وقد حفظت منذ أربعين عاماً وقد ختمت القرآن الكريم في كل يوم جمعة منذ فجر شبابي، وبذلك كنت أخته في كل عام ثمانية وأربعون مرة، وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع وأنا لا أنثنى عن عزمي، وقالوا لي وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم باشا وأنت لا تحمل هدية فأنا لا أرد جواباً، وماذا أصنع بالهدايا التي لملك فونجستان وفي الموضع الذي يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتي الحاجة، ودعوتُ الله أن يسر لي زيارة منابع النيل ومقابر الأولياء هناك فأحمد الله تقبل دعائي، لقد جئت إلى بلدة صاي وعودتي إلى مصر غير محتملة، اللهم هبني رقيقاً لأرحل، وألححت في الدعاء فقالوا لي لا تسانا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة فقالوا لي على الملأ: إذا دخلت القلعة فإن جنودها من الروم سوف يقتلونك، ونحن لن نعطيك رسالة ولا رفاقاً البتة، وقرروا أن ذهابي لغير إياب، فدخلني من ذلك خوف شديد، وتصورت ما سوف

ينزل بي من شدائد وبلاء ولكن لا بد من الذهب فحملت خمسين هجيناً بالمتاع ومعى اثنين من حاملي البنادق الشجعان، وحملت أربعة جمال بالمون وهبى أعيان القلعة ذلك كله، وقد أوصى شيخ النخاسين فى بربرستان وتجار الفونج على، وأنى من طرف الباشا أغا وإذا ما أصابنى سوء فسوف يكون ذلك وخيم العاقبة كما أنهم حذرونى من أن أثق فيهم وحذرونى من الغفلة حتى فى وقت أداء الصلاة فلا بد أن يكون حولى جنودٌ للحراسة وأن يحملوا السلاح ليل نهار.

جاء فى جميع التواريخ العربية وتواريخ الصابئة أن مدينة صاى مدينة تقع فى حدود أسوان وبعد الطوفان أنشأها كاهن يسمى رَهْوَان هندى وأثار أبنيتها ما زالت ماثلة للعيان، وهذه الآثار تثير دهشة مشاهدها وكأنها ليست من عمل البشر، وفى هذه المدينة مرآة صنعت من عدة معادن فمن قصد هذه المدينة من الأعداء أحرقتهم، ومن أجل ذلك لم يغر على هذه المدينة أعداء بغاة طغاة.

مدح حديقة إرم رَهْوَان الهندى

وبالقرب من هذه المدينة بجزيرة فى النيل حديقة تسمى حديقة رَهْوَان هندى، وكأنها جنة رضوان وقد نبت نباتها دون زرع، وبه أشجار غريبة وثمار عجيبة وأطياف تغرد وفى السحر ترفع كل الطيور أصواتها الحزينة فيدخل السرور قلب الإنسان، كما أن فيها حيوانات أليفة لا يعلم عددها إلا الله، فيا عجباً لهذه الحكمة، وكانت تابعة لأربعة حكماء اثنان منهم من ولاية بربرستان والآخران من ولاية الحبشة وبها أربعة ترع اثنان ماؤهما له مذاق التمر الهندى وماؤهما مفيد ومسهل للهضم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وفى طرف مدينة صاى أحجار صفراء اللون مستديرة فى الجبال ويسمون الحجر منها عين الصنم وهى أحجار مصقولة مجلوة ويقولون إنها عيون أصنام رَهْوَان الهندى. والعرب يضعون هذه الأحجار فى الماء ويشربونه وفى طرفة العين يسكرون وهؤلاء هم قوم كنوز، ولكن على حد قول أهل هذه الديار فإن حجر عين الصنم موجود فى جبال مدينة تنيس فى الحبشة والبرتغاليون يشربونه بالماء فيصير شراباً خاصاً لهم ويقدمونه هدايا فى ولاياتهم، إن شراب الذرة لا يتخمر ولكنه مسكر، وقد

خرجنا من قلعة صاى فى رفقة من أحد عشر رجلاً من الفونج والبربر ورافقتنا أهل القلعة ساعتين، ثم ودعناهم وقد حذرونا من مرض يصيبنا هناك ثم عادوا إلى القلعة، ومضينا فى صحراء على شاطئ النيل، فى طريق مستقيم مع الجند وعبرنا بقاعاً لا ماء فيها حتى وصلنا ماغرات:

أوصاف ولاية فونجستان وقلعة ماغرات زاخستان

إن هذه القلعة تحت حكم حسين خان ويسمونه فى هذه الديار الوزير وقد فتح هذه القلعة أوزدمر بك على عهد الطواشى سليمان باشا والى مصر، ثم استولى عليها أهل الفونج بعد أربعين يوماً وما زالت إلى اليوم فى حوزتهم، وحسين بك من عرب كلابش، ومن أتباعه سبعة عشر ألفاً من المحاربين وهم يسكنون خارج هذه القلعة وتحت حكمه سبعة عشر قلعة ويسمى حاكم فونجستان ذلكير، وهو يتبع وزير مصر، ولكنها الآن تابعة لمن يسمى يرار بك ويحكم تلك المدينة الآن من قبل حسين بك عطاء الله خان، ولدى حسين بك خان رسائل من قبلنا، وقد قدمنا إليه من طرف حاكم إيريم وصاى هذه الرسائل التى من أعيان إيريم وأعيان قلعة صاى وقد قبلها ووضعها على رأسه، وأرسلنا إلى خان القلعة، وأهدى إلينا سنين من سن الفيل، وقدم معنا من قلعة صاى مائتان من من يركبون الجمال فسلمناهم سن الفيل، وقد عاد هؤلاء إلى القلعة بما يحملون.

وقلعة ماغرات قلعة صغيرة مربعة الشكل تقع على الشاطئ الشرقى للنيل، وفيها أربعون أو خمسون بيتاً من حصير، ولهذه القلعة باب من خشب يفتح على الجنوب وليس فيها سوق، وفيها سبع أو ثمانى حانات للبوزة، وجامع صغير المثذنة، وقد أدبنا صلاة الجمعة فيه، وقد ذكروا فى الخطبة اسم ملك الفونج، وأهل الفونج مسلمون على مذهب مالك وأرسل الحاكم فى الصباح إلى مائة رقيق مسلحين بالحراب ويركبون الجمال، وكثير من خبز الذرة، والخراف المطهوه، وبطيخاً، وتمرًا، ومضينا على شاطئ النيل فى غابات أشجارها السنديان والأبنوس وهى أرض جبلية كثيرة الأحجار حتى تناره:

أوصاف قلعة تنارَه

وهى تحت حكم حسين بك حاكم الفونج، ولها قضاة من الزنوج، وكانت مدينة عظيمة فى سالف الزمان، وقد تركنا جميع رفقاتنا عند جزيرة قريبة من الشاطئ الغربى للنيل وهم الذين كانوا على الضفة الشرقية للنيل فعبرنا إلى القلعة فى سفينة، وبلغنا حاكمها وهو رجل صالح أسمر الوجه واسمه صالح كذلك، وسلمنا إليه رسالة رئيس قلعة صاى فسر لذلك وأرسل لنا المؤنة وكذلك العلف لخيولنا، وفيها قلعة حصينة قائمة على الصخور بناها شداد وهى قريبة من الشاطئ الغربى للنيل، وتقدمنا فى سيرنا، وبدت القلعة كأنها جزيرة على الصخور، ولها باب يفتح على الجهة الشرقية وعليه صورة أسد وحاكم القلعة له ثمانمائة من الرجال المحاربين، أما رعاياه فأربعون أو خمسون ألف من العرب سود الشعر، وهم جميعاً مسلمون من أهل التقوى يؤدون الصلاة ومذهبهم هو المذهب المالكى، وثمة جامعان ومحكمة ومقهى وسبع حانات للبوزه، وهم لشدة الحر عراة ومنهم من يلفون فوطة حول خصورهم أو يضعون إزاراً على ظهورهم، ويلبس حاكمهم قميصاً أبيض البطانة وفى هذه المدينة يكثر سن الفيل وقرن وحيد القرن ويصيدهم الصيادون، وفى الجانب الشرقى من النيل زنوج سود يأكلون لحم الجمال ويشربون لبن النوق، وبعد مرور تسع ساعات بلغنا قلعة سه سه .

أوصاف قلعة سه سه

هى قلعة حصينة تقع على الشاطئ الغربى للنيل، ومكث رفقاتى فى هذا الشاطئ وعبرت النيل فى قارب ووصلت إلى الحاكم وهو أسمر البشرة يسمى حسين بك وقدمت إليه الرسائل، وقد عظمنا وكرمنا، وهذه القلعة قائمة على الصخور وقد بناها شداد وبدخلها مائة بيت من قصب، وليس فيها مدافع ولكن فيها مجانيق وقد رجوت أن يسمح لى بمشاهدة هذه المجانيق، إنها تقذف أحجاراً يزن الواحد منها ثلاثة قناطير فيطير فى الهواء كأنه النسسر، ولقد أطلق منجانيق حجراً فسقط الحجر المقذوف فى بستان فى المدينة، وارتفع ثانية فبلغ الجانب الآخر للنيل، ولهذه القلعة قاعدتان عظيمتان، وعليهما نخلتان شامختان وقد علقوا فيها أربعة حبال من جلد الفيل، وفى أعياد الروم يصنعون

الأراجيح للصبيان على هذه الجبال، وبهذه الحجارة فى تلك الجبال يهلك الأعداء، وقد وضعوا على أعمدة المجانيق كثيراً من الجبال وهم يدفعون الحجارة المعلقة فى الجبال فتصدم العدو صدمة عنيفة يكون بها من الهالكين، وفى خارج القلعة أشجار الدوم ويحملون المجانيق على ظهور الجمال إذا خرجوا محاربين وهذا يعدّ مشهداً عجيباً، وفضلاً عن ذلك لهم أسلحة أخرى هى السهم والقوس والسيف والمقلع والمزراق والحرية متعددة الأسنان، كما يستخدمون التروس من جلد الفيل ولهم خيول قصار وفيلة، ولكن جمالهم كثيرة والرجلان أو الثلاثة يركبان المدفع، وليس لهم بندق، ويتبع هذه القلعة أربعون أو خمسون ألفاً من الزوج سود الوجوه والشعور، والرجال عرايا أما النساء فمستورات، ولكنهم يواظبون على أداء الصلوات فى أوقاتها ولهم جامعان وسبع زوايا وستة مقاه وستة حانات للبوزة، ولا أثر فيها للأسواق ولكنهم يقيمون سوقاً عظيمة خارج القلعة فى كل أسبوع، وهذه القلعة قريبة من الحبشة وشرق القلعة أرض جرداء يغمرها ماء النيل وبذلك تبدو فى الماء جزراً وجزر، كما تبدو فيها قلاع وكلها تحت حكم كور حسين خان ولهذه القلعة من العرب خمسمائة وخمسون جندياً مسلحين بالحراب وتجاه النيل فى الضفة الأخرى قلعة مستديرة الشكل هى قلعة نازنارنته.

أوصاف قلعة نازنارنته

إنها قلعة منيرة مستديرة فى جزيرة فى النيل بناها شداد وهى كذلك فى حكم حسين خان وهو يملك خمسمائة جندي، وقد تجاوزنا هذه القلعة ومضينا على شاطئ النيل خمس ساعات وتجاوزنا خط الاستواء وسرنا فى أرض شديدة الحر ولا وجود فيها للأشجار ومضينا بمقدار سبع درجات.

أوصاف معديّة خفير الصغيرة

إنها حصن صغير فى غرب النيل والسفن التى تعبر إليها تدفع رسوماً وفيها مدافع وعندما تنحسر مياه فيضان النيل يمضى العرب إلى جزيرة سه سه على الجمال ثم يمضون منها إلى قلعة المعديّة، ولم نَمضِ إليها ولكن مضينا على شاطئ النيل واجتازنا بأكواخ من القصب، ومضينا فى الطريق ثمانى ساعات وبلغنا قلعة خفير.

بيان قلعة حفير العاصمة الكبيرة

وأرسلنا طليعة رجالنا إلى رئيسها الخان دائم الدين فخرج إلينا واستقبلنا بألف فارس ثم عبرنا بمائة سفينة إلى الجانب المقابل من الشرق إلى الغرب، فقصفت القلعة بالمدافع، ومكثنا في قصر صاحب القلعة كور حسين بك، وفي الجانب الغربي من هذه القلعة بناء مثلث الشكل وهذه القلعة منيعة، إنها مقر كور حسين بك، ويقولون إن أول من بناها هو عترة فعلى بابها المفتوح على النيل صورة زنجي على ظهر فيل ويقول أهل البلدة إنها صورة عترة، إنها صورة صنعت قديماً وداخل القلعة بيوت صغيرة وكبيرة من القصب وفيها عشرون محراباً، وأهلها جميعاً من المسلمين المتقين على المذهب الشافعي، وفي سوقها جامع الملك سيف الدين خاقان، وجامع الملك حارث خاقان وجامع الملك تبع خاقان وجامع حسين بك الذي بُني حديثاً، إنها جوامع صغيرة، ومنازلها قصار وليست مزخرفة، ويذكر في الخطبة اسم الملك الخاقان ثم اسم خادم الحرمين ثم قيصر محمد، وفيها خمسون زاوية ومبيرة، ووكالتان صغيرتان وستة مكاتب، وعشرون سبيلاً وحمام صغير، ومائة دكان وعشرة مقاه، وعشرون حانة للبوزة، وكل الدكاكين مفتوحة ليلاً ونهاراً، وفيها الأمن والأمان، ولهذه القلعة سبعمائة جندي وخمسون ألف بربري وأهلها يشتغلون بالزراعة، وقد رأينا في هذه المدينة خبز القمح، ويوزع علينا الحاكم دائم الدين خان في كل شهر مائتي رغيف وخروفاً وسمناً وجرةً من العسل ولحمًا وشعيراً وأكثر محاصيلها هو الذرة والتمر وفي بساينها يكثر البطيخ والشمام ولهم خيول صغار الحجم، وقطعان الإبل في صحاريها لا تقع تحت حصر وغنمها وعزاتها وعجولها كذلك كثيرة لا تحصى وكان في القلعة فيل صغير وكان أليفاً للغاية يلاعب كل أحد.

وصف حفير

وخارج المدينة في المقبرة ضريح القطب الشيخ ناصر الدين ابن الشيخ نصرت وقد زرنا ضريحه، ولاعتدال جو هذه المدينة تكثر فيها الحدائق والنخيل، ولكن ليس فيها جميز ولا نبق، وهذه المدينة تقع على بعد ميل شمالي خط الاستواء وترتفع عن مصر بمقدار ربع دائرة، ولشدة الحر فيها رجالها ونساؤها سود البشرة، وثيابهم فوطة وأعيانهم

يلبسون شال إحرام ورءوسهم عارية وقد مكثنا فى هذه المدينة ثلاثة أيام، واستراحت خيولنا وجمالنا وقدم سبعة من النجباء على الجمال ومضوا إلى المحكمة ثم لحق بهم القائمقام دائم الدين وتليت رسائل النجباء فمضى بأمر كور حسين بك إلى ملك الفونج المتمرد مائة ألف جندى وخمسين منجنيقاً وأربعين ألف جمل مع أسلحتهم وأحمال سبعين فيل من الخيام، ولأن هذا لم يكن كافياً كتب إلى أعيان المدينة يطلب المزيد من الذخيرة ففى خلال يومين جمع ذخيرة مقدارها ثلاثة آلاف جمل وثلاثة آلاف جندى وقد صعدت بنفسى إلى قلعة حفير.

وصف قلعة قاندى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل بناها وزراء ملك الفونجستان لذلك سميت قان، ولها ثلاثمائة حمل جمل من الذخيرة وثلاثة آلاف جندى فاختلفوا بعسكرنا وفى الصباح بعد أن مضينا سبع ساعات بلغنا قلعة ناورى.

وصف قلعة ناورى

إنها قلعة على الضفة الشرقية للنيل أقامها حسين بك وهى فى حكمه، وهى فى شكل مستطيل، ومساحتها ألف خطوة، ولها باب يفتح على الجهة الشرقية ولكن أسوارها منخفضة وبها ثلاثة جوامع وست منائر قصيرة، وأسواقها صغيرة وبها حمام صغير، وداخل القلعة مائة بيت من القصب، وألف عسكرى وأربعون ألف من الأهالى وقد وزع قائم المقام كمال الدين بك على جنودنا ألف حمل جمل من الطعام وستة آلاف جندى. ومضينا فى تلك الليلة عشر ساعات على شاطئ النيل وفى الصباح بلغنا قلعة سندي.

وصف قلعة سندي الحصن المتين

إنها فى شرق النيل على شكل مثلث وهى قلعة حصينة، وفى القلعة سبعمائة بيت من قصب وسبعة جوامع، وأما غير ذلك من المباني فخربة، وكل أهلها مسلمون متقون على المذهب الشافعى، وبها تتم حدود حسين بك، وهى فى حكم دفتر دار ملك الفونج، وثمة سوق ومحاريب وفى السوق سن الفيل وقرن وحيد القرن وجلد الضب

وشجر الأبنوس كأنها جبال مغمورة بالرمال، وهي موجودة ولكن لا قيمة لها، وحاكم هذه القلعة على بك، وقد انطلق في الطريق ومعه مؤنة يحملها ألف فيل وألفان من الجند أما العظمة لله، أصبحنا عددًا كبيرًا وكان الجند من الزنوج يملأون الصحراء والسهل وقد سألتني الحاكم عما إذا كان قيصر الروم لديه هذا العدد من الجند فأجبت له ليس لنا من الجمال ولا هذا العدد من الجند العراة ولكن لآل عثمان مدافع كالبحر ولهم عسكر يحملون البنادق وما نسميهم العسكر عراة أكبادهم محترقة يتناولون كسرة من الخبز، وإنهم يشون كأنهم قطعان من الحمير السود وإنهم غاية في النحول والضعف، إلى حد أن عظامهم تبدو من جلودهم، ولكن حركتهم خفيفة، وجيرانهم لا يأمنونهم وبلغنا صحراء دانقة.

منزل صحراء دانقة

إنها صحراء مترامية الأطراف وفيها كثير من النباتات، وقد مكثنا فيها وأقاموا خيامهم فيها، وفي وقت العصر ظهرت لنا آلاف من الأعلام في الغرب واقتربوا من عسكرنا ببطء، ولعلمهم من بربرستان ومذهبهم هو المذهب الشافعي، وقد مضى منهم أربعون ألف جندي مع مائة ألف جمل ليكونوا مددًا لحسين خان وبدأوا في السير من الصباح حتى الليل، وقد مكث عسكرنا عند بحيرة وامستطينا صهوات جيانا التي قدمها لنا صاحب القلعة، كما استقبلني ملك البربرستان، وقد أكرمنا الملك بأن أتخفنا بشال أسود، وخمس عشرة وسادة من الجلد وسجاجيد سود ولما استقبلناه وقف وعظمناه فقدموا إلينا لحوم الإبل والتمر وخبز الذرة، وأمام خيمته أحرق النَّفْتِ والقطران، وبعد الطعام لم يغسل يديه إنه رجل مكشوف الرأس وشعره عقائص وله خدام سمر البشرية سبحان الخلاق ثم أحضروا لنا حلوى التمر والشراب وقد شربنا الشراب في كأسات من الخشب، وقد عظمناه برفع أيدينا وبينما كنا نشرب سألنا عن أحوالنا، فقلنا إننا قد أتينا من قبل وزير مصر إلى ملك فونجستان، فقال لا يأتي من قبل وزير مصر إلى فونجستان، رجل أبيض البشرة، فقلنا لنصل إلى ملك فونجستان، وعدنا إلى خيامنا، وفي السحر قرعت الطبول ونمنا في الصحراء يوماً وليلة، ومضينا بعيداً عن النيل، وفي اليوم الثالث بلغنا شاطئ النيل ثانية، وبلغنا قلعة اردان.

فى مدح قلعة اردان

إنها قلعة جميلة حصينة على الضفة الشرقية للنيل إنها تحت حكم ملك فونجستان وعاصمته وهى مدينة معمورة جميلة للغاية، وبها سبعة عشر ألف جندى من سمر البشرة مائتا ألف من الزوج والبربر والفسونج من حملة الرايات، وهم مسلمون مؤمنون على المذهب الشافعى، وبها سبعة جوامع وأربعون زاوية وخان وحمام وسبع وكالات وستمائة دكان ومكتب للصبيان وسبل، ولكن ليس فيها أبنية على طرز أبنية الروم والعرب، وليست هذه المباني مزينة، وفيها حدائق هنا وهناك وفيها بساتين كثيرة، ومن شدة حرها تشوى الإنسان، وجملة أهلها من التجار، ومتى بلغوا بلدًا حملوا السلع على ظهور الجمال والفيلة وعند السير إلى الجهة القبلية تطلع الشمس من خلف الكتف اليمنى، وتقع هذه المدينة عند خط الاستواء فى الحبشة، وعلى الضفة الغربية للنيل أرض مخوفة؛ ولا يسكنها من أحد، إنها صحراء قاحلة وفيها فيلة، وعقبان ووحيد القرن فسرنا بمحازاة القلعة، وصدنا الفيل ووحيد القرن وبعض الحيوانات الأخرى فى الكمائن بالأوهاق^(١) والحراب.

وقد ألحق حاكم اردان حمل ألفى جمل من المؤنة وعشرة آلاف جندى مع جندنا، ولم تلبث^(٢) بهذه الصحراء وقد رأينا بشاعة ما فيها وسرنا ثلاثة أيام بلياليها وبعد أن أخذ منا التعب مأخذه بلغنا ساحل النيل.

صحراء هانقوج العظيمة

إنها تحت حكم ملك فونجستان، وهناك مكث عسكرنا وسمعنا فى الصباح صوت يقول الله كأن جيش كور حسين خان كان فى انتظارنا، وكان خيولنا وجمالنا مهياة للتعهد، وقد جاءنى خطاب يأمرنا بالتقدم سريعاً فمضينا فى الصحراء ثلاث ساعات، فوجدنا أنفسنا وسط كثرة من الرجال والجمال، وهم يحملون الحراب والسهم والقسى، والمزاريق ولا يعلم عددهم إلا الله، وتجاوزناهم، ووجدنا أنفسنا فى جيش تفوح من

(١) الأوهاق: الجبال ومفردها: وهق.

(٢) تلبث بالمكان: توقف فيه وأقام.

رء وسهم رائحة ذكية، وهم قوم سمر البشرة في وجوههم مسحة من الجمال، وقدم للمدد من ملك قرمانقه مائة ألف جندي وتجاوزنا خيامهم، ثم وجدنا أنفسنا في جنود، وفيهم من يشبهون جنود المصريين والعثمانيين، ورأينا لهم خياماً تشبه خيام العرب فدخلنا السرور ومضينا إليهم ولهم ألفى خيمة من الحرير الملون وقد انعكست أشعة الشمس على مدافعهم فكان لها بريق يبهر عيوننا، وقد مضيت إليهم غير خائف ولا وجل وتحدثت إليهم بكل أدب وقد استقبلوني عند الباب، وبعد أن تصافحنا وعظمته وركعت على ركبتى وقال لى بلسان تركى فصيح مرحباً بك، فاطمأنت روحى، وكأنه كان يعرف التركية الفصحى فبالقرب من أسوان كانت قبيلة من العرب مقيمة ففرحت بذلك، وقلت: إننا قدمنا دون طعام فقدم لنا الشاي فشرب كل منا فنجاناً من الشاي، وقَبَّل كل من قَدَمَ معنا من القلعة يده.

كما أنه وقر ملك بربرستان كل التوقير فى البداية عند مقدمه، وقَبَّل يد ملك الفونج الذى كان واقفاً على يمينته، والتقيناه به طبق القانون المرعى ومنح من معنا من الجند المؤن، وقال سوف نغضى لمواجهة العدو فى الصباح بإذن الله، وقلت قدموا لنا الطعام كذلك فقال مرحباً، وقد قدمت رسائل وزير مصر ورسائل أعيان جرجا ودراو، وصاى وإبريم، وقرأها ملك الفونج بلسان عربى بليغ ففهموا ما تضمنته هذه الرسائل، فوقف فى التو واللحظة وأراد أن يقبل يدى، وأمر وكيله بأن يهيمء خيمة بكل ما يلزم فيها فأقمنا بها، كما أنه كان يحمل عنزاً فى يده فقدمه إلينا كما كنت أحمل إزاراً مزركشاً فقدمته إليه، فلفه حول رأسه فقال لله نحمد أننا تسلمنا هدايا الروم فوقفت ومضيت إلى الخيمة واسترحت فيها ساعة، وقدم إلى خيمتنا بعد أن أصلحها العسكر والخدم، فرفعنا من التراب وأكلت بعض الحلوى التى أحضرها وشربت كوباً من الشراب وسُرَّ كثيراً لما أحضر إلينا من حلوى وشراب، وأهدينا إليه الحلوى والشراب المعطر فسر لذلك سروراً لا غاية بعده، وقدمنا جميع المؤن على الجند، وصاح العسكر طالين إلى أن أتقدم، وفى جوف الليل قرعوا الطبول، وقودوا كل الخيام، وكانوا على تمام الأهبة، ولما أصبح نفخ فى البوق، وانطلقوا فى طريقهم وطلبوا إلى أن أركب فيلاً فصعدت سلماً لأركب على ظهره

قتلت المعوذتين، ومضينا فى الطريق وفى طليعتنا ملك البربرستان ودعا ثلاثة عشر منا لركوب الفيل وعلى ظهر الفيل تناولنا فطورنا وطوينا المراحل وبعد الطعام سرتنا طاوينا مراحل بعيدة وقد امتلأ طريقنا بالعرب، وكانوا يمضون أمامنا زرافات زرافات، وعلى ألف فيل حملت الأسلحة والمجانيق، كما حملت المدافع ألف فيل وحملت الأسلحة والعتاد على ظهور مئات من الجمال، كما أن المشاة كانوا لا يحصون كثرةً ومضينا فى صحراء على النيل سبع ساعات.

أوصاف قلعة طومبو

إنها فى جزيرة عظيمة فى النيل وهى قلعة حصينة مربعة الشكل وفيها ألفان من الجنود وعشرون ألف من الرعايا الزوج، وفى القلعة جامع وقد مكثنا قبالة هذه القلعة وقد قدم إلينا حاكم القلعة حمل خمسمائة جمل من الذخائر، ولما أصبح الصباح ألحق بنا عشرة آلاف جندي من العرب وقد أهدى إلى حسين خان فيلاً لأركبه فى رحلتنا، فركبنا جميعاً، وقد بلغنا القصر واسترحنا من شدة الحر، وصلينا، ومضينا على ضفة النيل تسع ساعات.

فى تعريف قلعة جلته شوكرزوى

بما أن الشيخ شوكرزوى مدفون فى هذه القلعة لذلك سميت القلعة بقلعة شوكرزوى، إنها على الضفة الشرقية للنيل وهى قلعة حصينة وعاهل الفونج له من الرعية خمسون ألفاً وفى القلعة جامع، ومنها يأتى المدد والذخائر، ولما أصبح الصباح سرتنا على ضفة النيل عشر ساعات.

أوصاف قلعة حفير فونجستان

إنها بناء على الضفة الشرقية للنيل، وفيها جامع وأسواق صغيرة وحانة للبوزه، وللقلعة رئيس ويقيم بها ستون ألف من الرعايا، وقد قدمت إلينا كذلك الأطعمة ومضينا على ضفة النيل جنوباً وكان الحر غاية فى الشدة وفى الساعة الحادية عشرة بلغنا قلعة مشو.

أوصاف قلعة مشو

إنها قلعة على الضفة الغربية للنيل وهى تحت حكم الفونج، وفيها جامع ولها قاض

عدة مقاه وحنانة للبوزه، وقباله هذه القلعة قلعة طومبول، وبها جامع بلا مشذنة، وحاكمها هو ناصر بن طومبول، وطومبول اسم قوم عظام وقد شاهدناها، وعبرنا إلى الضفة الغربية، ومكثنا فيها ثلاثة أيام بلياليها، وقد وزعت الأسلحة على جميع الجنود، وأخذوا أهبتهم للحرب، وفي اليوم الرابع مضينا إلى الجانب الغربي في جنود لا يقعون تحت حصر، وقد مكثنا عند بحيرة فيله، ويحمل من البحيرة في كل يوم حمل مائة ألف جمل من الماء، وفي الصباح مضينا، وجملة القول أننا طوينا مرحلة بعد مرحلة في مدة يومين وثلاث ليال.

صحراء ادريسك

فيها أربع قرى وفيها دارت رحى القتال وفي الصباح كانت المجانيق تنطلق من فوق ظهور الفيلة والمدافع أيضاً تنطلق من فوق ظهور الفيلة وزحفنا نحو العدو، وتلوت الفاتحة وأنا إلى جانب حسين بك، ومضينا في الصحراء أربع ساعات، وهناك رأينا جند من الكفرة هبطوا علينا من الجبال وكانوا جنداً كموج البحر، وواجهوا جنودنا، ولكننا لم نتقهقر حتى تقهقر العدو إلى الجبال، وتفرقوا في الصحراء، أما جنودنا فصاحوا جميعاً في صوت واحد قائلين الله الله، وهاجمونا بالخيل والجمال والفيلة، وقد أطلقوا المجانيق وقد اختلط جنودنا بجنودهم فواجه الجندي جندياً.

وخلاصة القول أن المعركة دامت سبع ساعات وكانت غاية في شدتها وضراوتها. وفي وقت العصر عندما قيل انهدم بيده مخاف اطمأنت قلوب جنود الإسلام وقرت عيونهم أخبر حسين بك بقية جند الكفاح بالمجيء فقدموا وقت الغروب فمضيت إلى حسين بك وقدمت إليه التهنته قائلاً بارك الله في غزواتك فرد بقوله هذا من فضل ربي، ولفرط سروره بذل الأموال لنا جميعاً، وفي الصباح ارتحل عن هذا المكان وأمر الجند بالإغارة على عبدة النار، أما غير الجند فبقوا تحت:

قلعة فردانية

ومضى الجند أفواجاً لتخريب ديار عبدة النار ووجدوا في قلعة الفردانية جميع

الأموال والأرزاق، ودخل القائد المعظم حسين خان مع جنوده القلعة، واستولى على كل ما فى القلعة من خزائن وأمر جنده بالرحيل إلى القلعة، وأقام فى قلعة عبدة النار، ومضيت إلى قصر رئيس عبدة النار ولكن هؤلاء القوم حفروا داخل وخارج القلعة وخبروا هذه القلعة، فأخرجوا ما لا يحصى كثرة من الفؤوس، أى أنهم وجدوا أرض الذهب، كما عثروا على سن الفيل وقرن وحيد القرن والمسك والعنبر والذهب والأقمشة الفاخرة فى نادرة فى هذه الديار، وأمواهم هى الفيل والفرس والجمل والكبش والعجل والجاموسة وهى كثيرة عندهم لا تعد ولا تحصى، أما ما يستحسنه أهل هذه البلاد فهو ما يأتى إليهم من مصر من كتان ومن حرير، وقسى ورماح وسيوف وقد بناها كنعان بن نوح الذى ارتد عن دين أبيه ولم يركب معه السفينة، وهذا على حد قول عبدة النار، إن هذه القلعة على ربوة تطل على بحيرة وكل حجر فى بنائها يبلغ فى الطول والعرض خمسين أو ستين شبراً، وقد بنيت على شكل مسدس، وتتألف من طابقين ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها باب يفضى إلى الشرق وفى داخلها بيوت مبنية بالحجر، وفيها عدة بيوت تحت الأرض وكأنها غار الجحيم، وفيها قوم ليسوا من عبدة النار، لأنهم من عبدة الشمس وقد أغرنا على هذه البيوت وقد أخرجنا منها كثيراً من الغنائم، وليس فى هذه القلعة أثر يدل على أنها كانت كنيسة من قبل، وفى وسطها ميدان ويجتمع عبدة النار فى هذا الميدان كل صباح فى ظل أشجار السنط والسنديان والأبنوس ويسجدون وفى جوانب هذا الميدان الأربعة أشجار كأنها الجبال ويحضرون منها الحطب يحملونه على ظهور الفيلة والخيول، ولكن فى بيت النار هذا طائفة الفونج والقرمانقى والققانى أطفئوا النار وتبولوا وتغوطوا عليها، وقد رأينا بعض الأسر يصيحون ويكفون وقد عرفنا أن بيت النار هذا لم تنطفئ فيه النار منذ ثلاثمائة عام، وفى زعمهم أن هذه النار هى التور الإلهى ولكنها لا تدوم وتنتهى، وهذه هى حال بيت عبادتهم، وهذا ما أحزنهم، أما عبدة النار الذين يسكنون تحت الأرض، فليس لهم كنيسة ولا بيت للنار، ولكن على غارهم بحيرة واسعة يطل عليها عمود، وقد حفر فى هذا العمود محراب متجهاً إلى الغرب، وجميع عبدة النار يجتمعون ويسجدون للشمس حينما

تشرق الشمس وترسل أشعتها على شرق هذا المحراب، ثم يرقصون وينصرفون ويفعلون مثلما فعلوا عند غروب الشمس، فهم يقيمون شعائرهم هذه كل يوم، وقد أبطل حسين خان هذه الشعائر، وجملة القول أننا مكثنا في هذه القلعة شهراً بتمامه، وقد أغرنا ليلاً إلى أسوان على عبدة النار وعبدة العجل وعبدة الفيل وعبدة الشمس وقد غنمنا كثيراً من الغنائم في كل يوم، وانطلق جنودنا وعادوا بالغنائم من فيل ووحيد القرن وفرس وجمل وحمار وجاموسة وثور وكبش، وعلى كل فيل عشرون أو ثلاثون أسيراً وعلى كل جمل خمسة أو ستة أسرى كما جاءوا بخيول وحيوانات ومن كل ولاية جاءوا بفتيات وفتيان وزنوج، وبعد ذلك في أحد الأيام من عام ألف وثلاثة وثمانين خربوا قلعة فرداني وكان المسير على شاطئ النيل فسرنا نحو الشرق إحدى عشرة ساعة ومكثنا على ضفة البحيرة، ثم قمنا ومضينا شرقاً فسرنا سبع ساعات على شاطئ النيل وقد سبق لنا أن عرفنا قلعة مشو ومكث الجند مع غنائمهم على ضفة النيل، وبعد إحدى عشرة ساعة أمرنا بالبقاء في هذه القلعة على ساحل النيل لمدة ثلاثة أيام، والتفت كل منّا إلى غنائمه، ثم مضيت إلى حسين خان وقلت له لله أحمد أنك نلت النصيب الأوفى من هذه الغنائم، ووصلنا إلى مملكتنا سالمين غانمين، ونحمد الله على أنك كنت سبباً في نيل هذه الغنائم ولقد خدمنا شهرين، فأذن لنا أن نمضي إلى ملك فونجستان حتى نسلمه الرسائل والهدايا، وقد تفكر طويلاً في هذا مما قلنا له؛ فقال لقد سررت كثيراً لمجالستك ومحادثتك ومصاحبتك ولقد تعشقناك ولكن لنا نصيحة فأقبلها منا، فأنت من قوم الروم وغريب الديار وأنت الآن ضيف لنا وأنتم مسلمون، ولقد جعلنا ديار عبدة النار خراباً يباباً وقد غنمنا من ديارهم الأنعام والأسرى وأخذنا منهم الأسرى ولقد من الله علينا بذلك بلا حدود ولا حساب، وقضينا على عبدة النار إلى آخرهم، وسلكنا طريق الفونجستان والبربرستان إنهم قطاع الطريق، وأعداؤنا في جميع الأرجاء تم لنا قهرهم، فارجعوا إلى ولايتكم وسنرسلكم إلى فونجستان في الموسم في السفن، ولتبقى جميع خيولكم وجمالكم عندنا وهذه هي نصيحتي لك وسوف يتيسر أمركم بمشيئة الله ولكن هذه النصيحة لم تصادف رضا وقبولاً، وقد استأثرت لهذه النصيحة، وصبرت على

تكراره لهذه النصيحة، فقدم رجل ومعه ستار أبيض واضح اللون فألقاه أمام حسين بك وسجد عليه، وقال يا مولاي إن ملك بربرستان قادم فقال له: ليقدّم، وسرعان ما فتح باب الحجره فقدم بربر رءوسهم عارية وقد جلس ملكهم إلى جانب الخان وتعانقا وبعد ذلك حيناهم وقلنا فلنمض إلى ولايتكم، لأننا لا ننسى تسلط العدو علينا، وقد طلبوا من حسين خان المدد لولايتهم فقال لهم على السمع والطاعة ووجهوا الكلام إلى قائلين، ولقد يسر الله لك عملك ها هو ذا ملك الفونجستان يمضى فى مائة ألف جندى إلى ولايته، وهو يمضى معهم إلى بربرستان وسوف نسر كثيرا إذا ما أطلعت ملك فونجستان على مطلبه وامدده بما طلب من الجند فقال الملك على السمع والطاعة، وقام من مجلسه وأراد أن يقبل يدى ولكنى لم أمكنه من ذلك فجذبت يدى، وكأنا كان المحبة لهم دأبا قديما، وكانوا يشترطون لتعظيم أضيافهم تقييل يدهم، والله أحمد أنى وجدت رفيقا عظيما، فشكرت الله وقد خاطبنى ملك من ملوك الأرض، فقال فى الصباح امضوا إلى طراود، وقد ودع حسين خان ثم مضى، وذهبت إلى خيمتى واسترحت فيها ساعة فرأيت الخان قادمًا، فوثبت قائمًا لاستقبله وصافحته فأتى إلى خيمتنا وخلفه قافلتان من الجمال تحملان ليف النخيل وفى غرائر سن الفيل وعشرون من العذارى الجميلات الحسنات السمرات، وعشرة جمال عليها عشرون من غلمان عبدة النار وهم سمر البشرة حمر الوجوه وقد وهبنا هذا كله كما وهبنا أنيالا وجمالا، وعددا من الزوج الأسرى وقد قيدنا الأسرى حتى لا يفروا وقد نصحننا بأن نحذرهم ونحرسهم فى الليل كما منحنا فاسا من الذهب وعشرة قرون من قرون الثيران وعشرة أقفاص فيها بيغاوات ناطقة وصندوق من المسك وآخر من العنبر وحمل جمل من الكاكاو وبعد كل هذه الهدايا حيانا بأحسن تحية وقال وفى عودتكم بخير مروا بقلعتنا، ثم مضى إلى مسكنه، وفى الصباح هيأنا أحمالنا ومضينا إلى جند بربرستان وقد أرسل إلينا حسين خان ألف جندى لتوديعنا ثم مضينا سبع ساعات وبلغنا قلعة دفنا.

قلعة دفنا

إنها قلعة صغيرة مربعة الشكل فى جزيرة عظيمة فى النيل وبها كثير من المدافع والفيلة وبها خندق وسوق ولا عمران فيها سوى ذلك وإن كان فيها جامع صغير بلا

مئذنة وهذه تحت حكم ملك بربرستان ووصلنا بكل هذا القدر من الهدايا التي كانت معنا إلى هذه القلعة التي ليس فيها شيء يذكر، إنها في الصعيد العالى والقوم هناك هزيلو الأجسام لا يزرعون وعلى ضفة النيل ينبت القطن والكتان والبرسيم والسهم والبقول والأرز والعدس، وفي أرضهم الذهب إلا أنهم قوم عبيد متمردون، وفي الصباح خصنا رئيس قائم مقام القلعة بخمس مائة جندي لأن في هذه الليلة فرماً من زنجيان من عبدة النار ثم بعد ذلك مضينا جنوباً وسرنا على شاطئ النيل وبعد مسيرة عشر ساعات على ضفة النيل بلغنا قلعة أمداج أرقو.

قلعة أمداج أرقو

وهي قلعة واسعة في جزيرة في نهر النيل قريبة من الجانب الشرقى وهذه الجزيرة قليلة السكان، وفي الجزيرة غابات أشجار الأبنوس وقدمنا إلى حاكمها الهدايا وسرنا جنوباً تسع ساعات وبلغنا قلعة بنى.

إنها كذلك قلعة في جزيرة في النيل تحت حكم البربر، إنها بناء مربع مرتفع، وقلعة جميلة، وقد أتى إليها الإمام مالك فى سياحة له، وقد شرفوا بالإسلام، وبعد أن اعتنقوا الدين الخفيف وبناء على اقتراح الإمام مالك أقاموا هذه القلعة، وعلى باب القلعة كتابات للإمام مالك بالخط الكوفى، ومقدم الإمام مالك إلى هذه القلعة لأن قطب الأقطاب الشيخ عز الدين كان على قيد الحياة فالتقى به فأصبح فريد زمانه، والشيخ عز الدين مدفون فى هذه القلعة، ولخوفهم من هذا القطب سكن جميع سكان الجزيرة خارج هذه القلعة ولا وجود لإنسان داخل القلعة ومن يدخلها من بابها يخلع نعليه، ولا يستطيع أحد أن يتبول أو يتغوط وهو فيها، ولقضاء حاجتهم يخرجون إلى ضفة النيل فقد بقى بداخله ثلاثة بلا تغوط ولا تبول وهم لا يربون من الأنعام إلا الحصان والجمال لأن نجاسة باقى الحيوانات نجاسة غليظة، ولأنه قطب عظيم ولا يجرؤ أحد فى تلك الجزيرة على أن يفعل السوء أو يرتكب إثماً أو يظلم أحداً فهو قطب طبق صيته الآفاق، وقومه من الموحدين، ومؤمنون من أهل التقوى، ويقصده المرضى والصغار ليشفوا من مرضهم؛ فيزول عنهم ما بهم قبل أن يصلوا إلى ضفة النيل، وسرنا ثمان ساعات على ضفة النيل وبلغنا قلعة أرتد.

فى وصف قلعة أردت

إنها تقع على الضفة الغربية للنيل إنها مربعة الشكل، وحاكمها زنجى وهو يقدم الهدايا إلى حاكم بربرستان، وهو من أهل القلعة، وسرنا على شاطئ النيل لشدة حرارة الجو فبلغنا قلعة أرنش.

وصف قلعة أرنش

إنها قلعة فيها جامع، وبها من الرعايا خمسون ألف إنسان وألف جندي، وهى قلعة معمورة وحاكمها فرجون فهو بربرى ولا يوجد فيها سوق وبعد أن تجاوزناها بخمس ساعات بلغنا قلعة جبرية.

قلعة جبرية

إنها قلعة جميلة وبداخلها ثلاثمائة بيت من قصب، وبها جامع بلا مثذنة كما يسكنها خمسمائة إنسان، ولكن خارج هذه القلعة فى الصحراء وحولها تسكن الصحراء قبائل الجبرية، وكلهم على مذهب الجبر، وليسوا على المذهب المالكى، وهم لا يؤدون الصلاة فى أوقاتها الخمسة، ويؤخرون الأذان عن أوقاته الخمسة وأذان الصلاة عندهم بكيفية خاصة بهم أما نحن فنقول حى على الصلاة مرتين، وحى على الفلاح مرتين أما هم فيقولونها فى أوله وآخره، أما نحن فنقولها مرة واحدة فى الأذان وليسوا أصحاب سنة إنهم يصلون خمس مرات فى أربع وعشرين ساعة ولكن أى وقت كان وبعضهم يجمع الصلاتين بالقصر، ويصلون الصلوات الخمس بإقامة واحدة، فهم لا يكررون الإقامة، وهم قوم أكثر العدد على المذهب الجبرى، وعلى مسيرة اثنتى عشرة ساعة قلعة حناق.

قلعة حناق

إنها قلعة كبيرة مخمسة الشكل فى داخلها سبعمائة بيت من قصب وكل فرد فيها له منزل، وبها جامع وحول القلعة فى الصحراء بدو على المذهب المالكى إنهم قوم زنوج على المذهب الجبرى وعددهم مائة ألف من الرعايا إنهم فى إقليم الفونج وهم أشداء شجعان وليس فيهم من يركب الخيل ولا الفيلة، وخأنهم الشيخ عشاب ابن ملك الخاقان، أما القلعة فحاكمها هو حسين الفونجى البربرى فقد أتى إلى الملك ومعه الهدايا، وبعد سبع ساعات بلغنا قلعة خندق.

قلعة خندق

إنها قلعة صغيرة على الضفة الغربية للسيل بها جامع ومن بين مدافعها مدفع من الذهب وهي قلعة تشبه الخندق الصغير في خارجها خندق عميق في الأرض، ولذلك سميت القلعة بقلعة الخندق، وبداخلها مائتا بيت من قصب ولا يسمح للجبرية بدخولها، ويمشطون شعورهم على جانبين، وهم يحلقون أفقيتهم، وبذلك يعرف أنهم من الجبرية، وأنهم بدو، وقد قدم حسين بك إلى حاكم القلعة هدية من مائة قربة من البوزه وقد أتى علينا عيد الأضحى ونحن في ضيافة البربر، وبعد اثنتي عشرة ساعة بلغنا قلعة قولى .

قلعة قولى

قلعة على الضفة الغربية للسيل، وبها جامع وثلاثمائة بيت يسكنها البربر ورئيسها سليمان بن بشير، وقد قدم لنا مائة خروف وخمسة جمال صغيرة وسبعون قربة من لبن النوق المجبن وعشرة جمال محملة بخبز الذرة ومنها بلغنا قلعة بقر .

قلعة بقر

إنها قلعة تقع على الضفة الغربية للسيل والجانب الشرقى منها منهدم ويسكنها فقراء من البربر، وحاكمها حسين الفونجي، وقد أهدى إلى ملك البرابرة جوادًا وثلاثة جمال وما غنم ملك البرابرة من فيلة وجمال وما لا يلزم من أنعام أطلقها إلى صحراء قلعة بقر مع الجمالة والفيالة لترعى النباتات والأعشاب وبذلك ردت عليها الروح، وأهالى دونقله خرجوا جميعًا لاستقبال الملك زرافات زرافات قائلين بارك الله لكم فى غزوتكم وقدموا الهدايا كما وزع على العلماء من مال الغنائم لكل فرد منهم خمسة أو عشرة خراف وقد عرفت من ذلك أن ملك البربر شحيح لقله ما أهدى إلى العلماء فى هذه الديار يقدمون عشرة خراف ثمناً للذراع من الحرير أما الحرير فى جرحه فالذراع منه ثمنه منقرتين، وفى خيمته كان يأكل لبن النوق وخبز الذرة، وعلى الدوام يطلب المتعة، فيطعم ويشرب، ويدمن شرب البوزه فما التفت إلى إلا أننى كنت أحسن العشرة .

وفى الصباح لبس جميع الجند البربر ثيابهم النظيفة وقد تزينوا بأسلحتهم ولملك بربرستان جنود يحملون الحراب يحيطون به، وهم يؤلفون جناحًا أمين وآخر أيسر، فى

انتظام كما كان طليعة جنده خمسين ممن يحملون السهام وقد تغنوا بلغتهم وانطلقوا فى طريقهم، وقرع أتباع الملك الطبول وعلى هذه الحال مضينا سبع ساعات على ضفة النيل.

أوصاف بلاد السودان

وصف قلعة دنقله المدينة العظيمة والعاصمة القديمة لبربرستان

على حد ما ورد فى تواريخ القبط أن أول من بنى هذه المدينة هو نقول بن حام بن نوح - عليه السلام -، ونوح نبى عاش ألف سنة وبعد أن أنجاه الله من الطوفان جعل يتجول وقد استوطن هذه البلاد، ثم زوج ابنه حام فتاة فولدت له ولدًا اسمه فى العربية دنقل وعلى مر الأيام كثر أولاد حام ونزل نوح وأولاده وقومه ذات يوم ضيقًا على حام والحكمة يعلمها وجد الراحة عنده، وانكشفت عورة نوح وهو نائم فقدم ابنه حام فرأى عورة أبيه قد انكشفت فجعل يقهقه ومضى بعيداً ودلّ على ذلك سام وياث فأخذهما الخجل لما شاهدا عورة أبيهم وخرّاً مغشياً عليهما من فرط الخجل، وبينما كانا يستران عورة أبيهما بإزار أفاق من نومه وجعل حام الغرير يضحك، ونظر حام الغرير إلى أبيه فسأله نوح عمّا يضحكه؟ فقال: إن يافث وسام حدثاه عن انكشاف عورته.

وطلب نوح من الله الملك، وأن يعمر ابنه سام، كما دعا الله أن تملأ ذريته الدنيا، ودعا الله أن يعمر ابنه يافث وأن يكون ملوك الأرض جميعاً من ذريته، ولا تنقرض ذريته إلى قيام الساعة، كما استجاب الله دعاءه بأن يكونوا مرفوعى الهامة فى الدنيا والآخرة، وأن ينتهى نسب جميع ملوك وسلاطين الأرض إلى نوح، وأن نسب جميع العرب والعجم وجميع المرسلين والأنبياء إلى سام ابنه وأن يعمر ابنه حام فى هذه الأرض الشديد قيطانها، وأن يكون أولاده فى جزيرة مصر وأنعامه لا تدخل تحت حصر وقد دعوت الله أن يجعل أبناءك فى هذه الأرض يمشون عراة لأنك ضحكك ولم تستر عورتى، وأن يمشوا عراة سود الوجوه إلى أن تقوم الساعة، كما دعوت الله أن يجعل وجه حام أبيض فى الآخرة فأمر الله أن يستقر حام فى دنقل، وأن من ذكر انكشاف عورة أبيه اسود وجهه، وجميع العرب ينتهى نسبهم إلى حام، وقدم نوح مع غير هؤلاء من أولاده إلى مصر وبقي حام المذكور

في منطقة خط الاستواء وكان له من الأبناء مائة ألف وكانوا سود الوجوه ثم مات حام الأسود وأفضى حكمه دنقل إلى أولاده ولأنه بنى قلعة دنقل أثناء حكمه، سميت هذه القلعة ولاية أسوان باسم دنقل ولتخفيف الكلام حذفت الألف فأصبحت أسودان في سودان وكانت بلاداً عظيمة في الزمان الخالي، وأساس عمائرها ما زالت ماثلة، ولقد خربها كذلك أبرهة اللعين ولكن تبقى بعد ذلك جزء من قلاعها وبيوتها وعمائرها وقلعتها مبنية بالأجر الأحمر وتقع على الضفة الشرقية للنيل إنها قلعة قديمة لا خندق لها، ولها ثلاثة أبواب منها بابٌ يطل على النيل، وفي داخلها بيوت من الجص تبلغ ستمائة وخمسين بيتاً وهي من الحجر المحروق يسكنها البربر وفيها سبع جوامع وتسع مساجد وستة مكاتب للصبيان، ولا أبنية فيها غير ذلك، إنها تقع على صخرة قائمة، كما أن قصر الملك قلعة، وليس في هذا البلد بيوت عامرة، ولكن خارجها ثلاثة آلاف بيت للبربر، وبعضها من اللبن وبعضها الآخر من القصب، وفيها عشرة جوامع يدعى فيها لسلطان العثمانيين ثم يدعى بعد ذلك للملك الفونج لأن السلطان العثماني خادم الحرمين؛ إنهم قومٌ أتقياء على المذهب المالكي، ولا يعرفون الغيبة ولا النميمة ولا سوء الظن ولا استقامتهم وحسن أخلاقهم فيجمع خدم التجار من البرابرة، ويسمون الجندي بالبربري، وهم ستون ألف، أما البرابرة فعددهم ثلاثمائة ألف رجل والبرابرة يشتغلون بالزراعة والتجارة فيزرعون الشعير والذرة ويحصدونها وطعامهم خبز الشعير والذرة ولحم الطير ولحم الجمل ولبن النوق، ويزوتهم جيدة للغاية، ويأكلون لحم الققط فهو عندهم مباح فهم يقولون: (جدي قطه) أي: القط اللذيذ، وإنهم يأكلونه عند الضرورة ويشربون ماء النيل، ويصيدون في الصحراء الفيل والزرافة ووحيد القرن والغزال وأظافرهم كالمخالب وبها يتناولون الطعام.

وصف الزرافة

إن خدام صاحب بيتنا يحترفون صيد الزرافة، ويصنعون منها الكباب ولكن لحمها دسم للغاية، وطلبوا إلى أن آكله وقالوا إنه حلال إن شاء الله فلم نر لها ذكراً في القرآن الكريم، ولا وصف لشكلها ولا جسدها فجدها مثل جلد العجل ولها عنق طويل كعنق الجمل، ورأسها كراس العنزة إلا أنه أكبر، وهي تفاحية العين، وأذنها كأذني الجمل

وعلى ظهرها خطوط سوداء وذيلها كذيل العجل وقوائمها طويلة وحوافرهما من شطرين، وعنقها كالمثذبة تبلغ به الشجر العالى، فتأكل من الأغصان كما أنها ترعى أنواع شتى من الأعشاب فى الأرض، إنها حيوان جميل ولحمها لذ طعمًا من لحم العجل، والبربر يصيدونها بالحيلة وللحم الخراف فى هذه الديار رائحة كرائحة المسك لأن الماء عذب فرات ولذلك تنمو به الزروع المختلفة التى ترعاها ولا يشبهها علفٌ فى بلاد أخرى، كما أن طيب الهواء سببٌ فى جمال النساء فى تلك الديار، ولهن عيون الغزال وسمر الوجوه كأن ثغورهن البراعم، إنهم حقًا من نسل نوح، ولكن الناس لا يلبسون ثيابًا، وإنهم يكتفون بإزار عليهم ويتلفون به ويفرقون شعورهم، ولشدة القيظ كأنهم فى جهنم، وأجسامهم نحيلة، ولكنهم يتصفون بالجرأة والشجاعة، ويتصفون بالبخل والطمع والجشع وهم يتجولون وهم جياع، ويطعمون ما يجدون، إنهم حفاة لا يسترون رءوسهم وحاكمهم هو رفيقنا محمد بن حسين، وهو تابع لملك الفونج، وكان معنا فى محاربتنا لعبدة النار، ولكن بلادهم يسود فيها الأمن والأمان، وإذا ظهر فيها قطاع للطريق بادروا إلى قتلهم، ولا وجود للثقود فى هذه الديار، كما لا وجود لسوق ولا خان ولا حمام ولا مِبْرَّة ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن يوجد بها حانات للبوze، ومقهى، ولا وجود لحدائق والقردة كثيرة، ولا وجود للفاكهة، ويكثر الشمام والبطيخ فى البساتين ولا وجود فيها للمآذن، وفى أيام الجمعة يحتشد الرعا، وتقام سوق فى ميدان واسع ويشتري كل ما يريد من سلعة ويشاهد النخيل فى جهات متفرقة وبين هذه البلاد وبلاد النوبة مسافة طويلة، وفى غرب هذه البلاد مدينة:

مدينة زغاوه

تقع هذه المدينة فى الإقليم الأول، وقد كانت مدينة عظيمة فى قديم الزمان، وكنت فى دنقل أتحدث مع الملك طيلة ثلاثة أيام وأخذت من الغنائم التى غنمها حسين خان حاكم حفير وهى ما أقدمه هدية إلى ملك الفونجة، التى أحضرتها إليه، ومن أمواله قدمت ألف جمل وسبعين فيلاً وألف عجل وستة آلاف خروف وخمسمائة أسير من

عبدة النار، ومضيت إلى ما في المدينة من المزارات ففي المقبرة ضريح الشيخ بن عيسى وعلى ضريحه يهبط في ليالي الجمعة نور، وفيها كذلك ضريح الشيخ أعوا كما أن هناك ضريح الشيخ أبو بكر والشيخ أبي القاسم.

وفي نفس المقبرة ضريح الشيخ بلبل والشيخ غلام الله، وقد زرت هذه الضرائح وعندما عدنا إلى بيتنا قدم علينا ملك بربرستان، فشرفنا بزيارته لنا فمنحنا اثني عشر جملاً وفيلاً أسود، وعشرة من الجمالة، وعشرين عبداً أسود، وست نساء وشمعدان من الفضة، وحقاً كبيراً فيه حجر سيلان الثمين وكان كل حجر منه ياقوت بدخشان، كما منح كل خادم من خدامنا ثلاثة جمال، وطلب المعذرة، كما عين جندياً من جنود القلعة لحراستنا في مسيرنا إلى فونجستان كما قدم إلينا وسادة مخططة وعماتين وإزارين وقد رقصوا من فرط السرور لأنهم لم يجدوا مثل هذا في بلاد الروم وقد تقبلنا هذا، ثم مضى إلى قصره فأرسل لنا بعد ساعة خمس من العذارى الجميلات وحمل جملين من سن الفيل وقد أمر القاضي بأن يحمل هذه الهدايا إلى ملك الفونج، وفي الصباح ودعنا الملك وعزمتنا على الرحيل، ومضينا على الضفة الشرقية للنيل ثماني ساعات حتى بلغنا سور طوشي.

أوصاف سور طوشي

إنها قلعة في جزيرة في النيل في الجانب الغربي من الجزيرة وقد سألت عن باني هذه القلعة فما عرفوه، وهي كذلك كقلعة دنقل لها ثلاثة أبواب، ولكنها ليست قائمة على صخرة كقلعة دنقل، إنها قلعة عظيمة مربعة الشكل، إنها تحت حكم فونجستان وبداخلها بيوت للبربر وحولها حانة للبوze، وجوامع ولا عمران فيها غير ذلك، ولحاكمها ثلاثة آلاف من الجنود وسبعة آلاف من الرعايا البرابرة، وكان أكثرهم معنا في حربنا في الفردانية، وفي هذه الجزيرة كثير من التماسيح، إنها تختطف الخراف والعجول والجمال وتجذبها إلى الماء فتغرقها، إنها تماسيح أسوان اللعينة، وطول الواحد منها من أربعين إلى خمسين ذراعاً، وسرنا على شاطئ النيل في غاية القبط لمدة ثمان ساعات.

وادي العفاريت

مكثنا في صحراء مترامية الأرجاء وفيها من أشكال العفاريت كل عجيب وغريب، إن هذه الأشكال الغريبة على ربوة مرتفعة في ميدان واسع، وفي جوانب هذا الميدان الأربعة كراسي، وفي الجانب الغربي من هذا الميدان سبعة أعمدة، وعلى ذروة هذه الأعمدة حجر كبير يصل بين هذه الأعمدة ويغطي هذه الأعمدة السبعة، وهو يحمل فوق الأعمدة، ويقوم على هذا الحجر تمثال لامرأة من النحاس الأصفر وإذا ما شاهدتها إنسان انشقت مرارته وقد ارتفع رأسها ارتفاعاً عظيماً كما أن غدائرها مستشرة متفرقة، وقد حدقت بعينها في الشمس فكان لهما بريق شديد، وفي حضنها طفل من النحاس الأصفر كذلك تجلسه على ركبتيها، وكأنها تحتضنه، يا له من تمثال عجيب يلقي الرعب في القلوب إنها كبيرة الشدين وقد رفعت ذراعها اليمنى وهي تشير بها إلى الجانب الجنوبي من النيل بإحدى أصابعها، والتمثال مصقول، وكأنه من الذهب الخالص، وأمام قدمي التمثال حوض عظيم وقد نحت في الحجر الصلد مساحته عشر في عشر، وفي الإمكان أن تجرى فيه سفينة إنه عجيب المنظر، وهذا التمثال الذي يقوم على الأعمدة من عجب أن تسيل دموع من الدم على ركبتيه ويجرى الماء من أظافرها كأنه مذاب منذ ألف عام، وهذه الدموع الدامية إذا سقطت نزلت في الحوض وأصبحت ماء بعد أن كانت دماً أحمر، والماء يتغير لونه في هذا الحوض في شهر تموز ويصبح طعمه كطعم الكبريت والمرضى يشربون منه مرة في العام فيتم لهم الشفاء، فيشفون من جميع الأخطا التحتانية ويحمر وجه من يشربون من هذا الماء، وبعد انقضاء شهر تموز يصبح ماءً عذباً ثميراً، وقد أكب على هذا الماء من من معنا وشربوا منه لشدة القيظ حتى أفرغوا ما في الحوض من الماء، وقد شربت منه فتجانا، حقاً إنه ماء زلال وكفار البرتغال يملأون الجرار من هذا الماء في مدينة زيلع ويقدمونها هدية ويحضرونها إلى الهند وأوربا، ويسقون هذا الماء المصابين بالجذام ومرض الزهري، وهو نافع من هذين المرضين.

أما الأعمدة التي في الجنوب فقد كتبت آيات شريفة، والكتابة هي: ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ولم يكتب تحتها تاريخ، وقد خطت علامة تحت هذه

الآية وفي الصباح شددنا الرحال، وسرنا إحدى عشرة ساعة على ضفة النيل إلى الجنوب، وكان القيظ غاية في شدته.

وصف حصار كنيسة

على الضفة الغربية للنيل قلعة عظيمة كأنها سد يأجوج، وبانيها هو أزرق جادو وليس في مَبَنَّاها حصص إنها مبنية على الطراز القديم، ولكنها حصينة إلى أبعد غاية ولها بابان أحدهما غربي والآخر يفتح على النيل، إنها مربعة الشكل، وبداخلها مائتا بيت وجامع، وخارجها ألف بيت وفيها سبعة جوامع وزاوية وأربعون حانة للبوزة وأسفل أبواب هذه القلعة قناطر عليها جلد تمساح، والقوم هناك سمر البشرة من البربر وسبب تسمية هذه القلعة بالكنيسة أنه غرب هذه القلعة على مسيرة ثلاث ساعات بنى جامع يشبه الكنيسة لسليمان بن داود، ومحرابه في جهة الرياح الشمالية ويتجه إلى القدس الشريف ولهذا سميت هذه القلعة بهذا الاسم.

في وصف الجامع القديم

بجانب هذا الجامع بحيرة عذبة الماء، إذا أقيت فيها جثة الميت سرت فيها الحياة، وقد حكم سليمان الإنس والجن والوحوش والطيور، ولما كانت تطير رأت في طيرانها هذه البحيرة فسأل سليمان وزيره آصف عن هذه البحيرة فأجابه يا سليمان إن اسمها «قرجلائقه زيد درسان»، وهي تعنى: بحيرة تخرج من باب الجنة، فأمر نبي الله في التورح الرياح بأن تنزل جميع مخلوقات الله ومكثوا في هذا الوادي وتجولوا في جوانبه الأربعة، وشربوا من مائها العذب، فكأنما ارتدت إليهم روحهم وأمر الشياطين بأن يقيموا له قصرًا شامخًا في ذلك الموضع وجامعًا عظيمًا، فبنوا هذا الجامع الذي يعجز عن وصفه القلم واللسان، وقد شرف هؤلاء القوم باعتراف الإسلام بعد الهجرة، ولولا القبلية شطر المسجد الحرام بعد القدس.

وخلصة القول أنه جامع منقطع النظير في جماله، وكأنما أنشأت يد القدرة أعمدته وجدرانه الأربعة، وفي استانبول آيا صوفيا ذو القبة العالية من طابقين وست قباب

صغيرة، وفي وسطه قبة بيضاء تحيط بها القباب من حولها، وفي الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ وكانت ليلة الاثنين انهدم «طاق كسرى» «وقرل ألمان» وهذه القبة العالية، وفي زمان كفاح النبي ﷺ كان هذا الجامع معبد صنم وظل بناء بعيداً عدة قرون وفي جوانبه الأربعة نزلت صحف كانت فيها إشارات كتبت بالعبرية عن الأنبياء، ونزلت صومعتهم، وفي داخل الجامع عدد ألف وسبعمائة عمود أحمر اللون ومرتفع مصقول إنه مثل ياقوت بدخشان، ولا وجود لثغرة بين عمود وآخر، ولا نظير لهذه الأعمدة في المقدس ولا دمشق ولا مصر، ولكنها منها كثير في الإسكندرية واستانبول وأثينا ولأن سليمان أقامها من أجل بلقيس فهي غاية في الجمال، وكمن من عمود راقد في الرمال، ومساحة هذا الجامع خمسمائة خطوة طولاً وعرضاً فهذا الجامع في السودان أكبر من جامع الغبق في مكة، وجامع إبراهيم في جبل عرفات، وجامع المزدلفة أي المشعر الحرام في جبل مزج بين عرفات ومنى وأكبر من جامع عمرو بن العاص في مصر وجامع أمية في دمشق وجامع آيا صوفيا في استانبول، لأن هذا بناء الإنس والجن ولذا ما شاهد معمار واسع العلم بالهندسة هذا الجامع إلا وأدرك أن سليمان النبي كان بارعاً كل البراعة فأظهر معجزاته ولقد تجولت ما تجولت في البلاد فلم تقع عيني على مثل هذا الجامع إنه مكسو في السداخل والخارج بالرخام وفرش بالصدف الهندى وفي بسطه اللؤلؤ واللآلئ والالعقيق والصدف والفيروز، وجدرانه فيها نقوش ملونة وأحجار الجدران مصقولة كأنها ورق الصين، وعلى الجدران أيضاً كتابات شتى وهذه الأحجار مصقولة وكأنها مراية، وفي أطراف محرابه آيات من الزبور وهي بخط الوزير آصف بن برخيا وهذه الكتابات على الرخام وداخل قبابه الست أحجار منقوشة، أما منبره فهو يشبه كرسى يصعد إليه من مسافة قدرها ثلاثة خطوات، ولا وجود لمنارة له، ويصعد فيه الأذان على الدوام والأحجار التي خارج الجامع كل حجر منها حجمه أربعون أو خمسون ذراعاً، حقاً إنه من عمل الشياطين لأن هذه الأحجار يعجز عن حملها الإنسان لثقلها ولو وجد هذا الجامع في أرض عامرة لكان جنة ولكن هذا دُرٌّ يَتِيمٌ، ولكن يجتمع على هذه البحيرة من مصر مئات الآلاف من الناس والحيوان، ويقيمون مئات الآلاف من الخيام على

ضفافها ويقمون سوقًا أربعين يومًا بلياليها، وحول هذه البحيرة يلتف جمع غفير من الناس والكائنات إنهم يتبركون بالشراب من مائها لأن سليمان - عليه السلام - شرب منها، وإذا شرب منها المرضى تم لهم الشفاء بمشيئة الله وفي اليوم الأربعين لهذه السوق المقامة عند البحيرة يحمل الماء على ظهور الفيلة والإبل والحمير في قرب لا يعلم عددها إلا الله وتحمل إلى بلاد الكفر وبلاد العرب، ولا يبقى في البحيرة قطرة من ماء ولكنها تمتلئ في العام المقبل بأمر الله، إنه جامع عظيم، أما في داخل الجامع فالخدم والشيوخ على المذهب المالكي.

أما قصر سليمان فقد تخرب ومكانه مبرّة، ولكن القوم ليسوا بنى آدم، وقد شاهدت ذلك وصليت في الجامع ومضيت في حملة على الكنيسة، وفي مضيئنا على الضفة الغربية للنيل مررنا بضريح الشيخ دلب وتجاوزناه ثم سرنا ثماني عشرة ساعة في شدة القبط ثم استرحنا في ظلال غابة من أشجار الأبنوس والسنديان، وبعد مغيب الشمس، بلغنا على الضفة الشرقية للنيل حصن اتقور الحصين.

وصف حصن اتقور

إنه قلعة مربعة الشكل على الضفة الشرقية للنيل، وفي داخله مائتا بيت وجامع وحاكم الحصن يسمى كورجه وهو من قبل حاكم فونجستان، وللقلعة بابان ولا وجود فيها لدكاكين ولا حمام ولا وكالة، وهم قوم غلاظ شداد وليس في قلوبهم رحمة، وهم سمر البشرة حمر الوجوه فتجاوزناها وبعد ثلاث ساعات بلغنا بلدة أرقى.

بلدة أرقى

ليس لها قلعة، ولكن بها بيوت كثيرة وجامع شديد الضيق وثمة ضريح الشيخ كرام الله الركابي على مقربة منه ضريح الشيخ حاجي ماجد وإلى جانبه ضريح الشيخ حاجي محمود وعلى مقربة منه الشيخ حاجي نَقُوز إنهم جميعًا يرقدون في قبورهم الصغيرة، وقد قرأت الفاتحة لأرواحهم الشريفة ومررنا على ضفة النيل بسبع قلاع خربة. ومضيئنا في الصحراء إحدى عشرة ساعة في طريق يخلو من الفيلة والقردة

ووحيد القرن والزراف .

وصف رياض دقّاره

إنها قلعة جديدة على الضفة الشرقية للنيل على هيئة الأوزة وقد تظلم أهل فونجستان من حاكمهم إلى سلطان مصر فى ذلك الوقت أيبك التركمانى فأمر سلطان مصر ببناء هذه القلعة ليتحصن فيها ملك الفونج لما كان بينه وبين ملك الفونج من صداقة ومحيطها ألف خطوة وبداخلها جامع وفيها ثلاثمائة بيت للبربر ولها باب من الخشب يتجه نحو الشمال وعليه جلد تمساح ولا وجود على الباب لتاريخ بناء القلعة، وسرنا ست عشرة ساعة حتى بلغنا قلعة الملك إدريس .

أشكال قلعة الملك إدريس

إنها قلعة صغيرة الشكل على الضفة الشرقية للنيل فى صحراء واسعة وفيها جامع وسبعمائة بيت وبابها يتجه إلى الشرق وأهلها بربر سمر البشرة وهم على المذهب المالكى، وهم غاية فى التقوى ولم تصدر منهم فتنة ولا عصيان ولا كذب أو طغيان ولا بهتان وهم يمشون إلى مصر للخدمة وهم أهل ثقة، وقد تجاوزناها وبعد تسع ساعات بلغنا قلعة غرى .

قلعة غرى

إنها قلعة صغيرة على الضفة الشرقية للنيل وهى خربة ومحيطها ألف خطوة وفيها جامع ولا أبنية سواه فيها، وفى الصباح سرنا على شاطئ النيل ست ساعات وعبرنا سهولاً ذات زروع وبلغنا قلعة خلفاهى .

المدينة العظيمة قلعة خلفاهى

إنها أيضاً على الضفة الشرقية للنيل وبها بيوت وجامع ولا وجود لأبنية أخرى، وجملة أهلها من الزنوج غلاظ الشفاه وهم قوم جابرة أشداء، ومضيئا عنها، وبعد ثمان ساعات، بلغنا ايلغون دنقله .

أوصاف مدينة ايلغون دنقله العظيمة

كانت هذه المدينة فى الزمان الخالى تحت حكم ملك بربرستان ثم تولى عليها سلطان الفونج وجميع أبنيتها من عمل البربر، إنها مدينة غاية فى الجمال، وعندما فتحها الفونج

تهدمت أماكن فيها، ويقول أهلها إن دنقلة جنتنا في الدنيا فإن كان لنا جنة فهي جنتنا ولا حاجة لنا بالجنة، إن جوها ليس بحار ولا بارد فكأنها إرم ذات العماد، وفي الزمن الماضي كان مَنْ يشاهد أسواقها وقصورها الشامخة يأخذ منه العجب كل مأخذ، وفيها غرائب وعجائب كأنها أسوان، ولاعتدال هوائها في بساتينها الليمون والسفرجل والتمر وأنواع شتى من الفاكهة، وأهلها مع ضآلة جسمهم وسواد بشرتهم إلا أنهم في صحة جيدة، ولاعتدال جوها يلد نساؤهم وأنعامهم التوائم على الدوام ولكن شياهم تلد في العام ثلاثة حملان إلا أنها غاية في ضآلتها، وفتياتها يَبْلُغْنَ مَبْلَغَ النساء في سن العاشرة، وتلد المرأة في شهرها السابع والثامن، وهم يزرعون الذرة، ولهم كثير من البساتين والإبل والعجول، ولا وجود في أرضهم للمعادن، ولديهم حمامات المياه الحارة ويأتي إليها أهل الممالك المحروسة، ويدخلونها فتشفي أمراضهم فيصبحون كما ولدوا لذلك فالقوم في أسوان وفونجستان وابلغون يتسمون بالجمال، وهذه المدينة تحت حكم ملك بربرستان ولكن زالت دولته فأصبحت تابعة للفونجستان، ومضينا عن هذه المدينة وسرنا في أرض كثيرة الأحجار والصخور جنوباً، وبعد مضي ثمانى عشرة ساعة بلغنا مدينة قوثرى.

فى مدح مدينة قوثرى العظيمة

كانت هذه المدينة على الضفة الشرقية للنيل وقد ذاعت شهرة مبانيها فى الآفاق ولم يبقَ منها إلا سبعمائة بيت، وجامع وثلاث شجرات للدوم، وبعد أن سرنا إحدى عشرة ساعة بلغنا مدينة عدى.

مدينة عدى

إنها فى حكم الفونج وركبنا سفينة وعبرنا من الشرق إلى الغرب، وشاهدنا مدينة عظيمة وكانت كذلك فى العصور القديمة، ولقد تبقى من عمائرها القديمة بعض آثار. ولقد كانت مدينة عدى تزدان بالقصور، وفيها اليوم ألفا بيت للبربر، إن أهلها على المذهب المالكي ومنهم على المذهب الجبرى، وقد عمرها ملك الفونج، إنهم قومٌ فيهم

قِحَّةٌ^(١)، وشيخهم هو الشيخ سعيد جبرى، ويتبعه أربعون ألف من الجبرية ومعظمهم من العيارين، وعلى الضفة الغربية للنيل سبعة محارب، وبعض الدكاكين ولا وجود للخانات، ولا وجود فيها لحدائق ولا بساتين ولا تمر ولا برسيم، والناس يأكلون الذرة والتمساح والقطط والثعلب وقط الزباد وسمك النيل ولاكلهم لحم التمساح أصبحوا شجعان، إنهم يحاربون بربرستان فينتصرون، ومضينا على ضفة النيل ثمان ساعات فوصلنا:

قلعة حلت الملك

إنها قلعة خشبية على الضفة الشرقية للنيل وبها جامع وستمائة بيت من القصب، فتجاوزناها وبعد خمس ساعات بلغنا قلعة نوجى.

قلعة نوجى

إنها على حدود الفونج، إنها قلعة عظيمة من خشب السنط ولها باب واحد وجامع ومائة كوخ وفي الصباح مضينا عنها وسرنا عشر ساعات.

وصف قلعة مدينة أرياجى

قلعة بنيت على الضفة الشرقية للنيل فى فضاء واسع وفى مساحة واسعة، فيها زروع إنها مدينة جميلة، إنها قلعة متينة الجدران ومرتفعة وارتفاعها ارتفاع الشجر ففى هذه البلدة أشجار عمرها ألفى عام أو ثلاثة آلاف، إنها قلعة خشبية بنيت من خشب الدوم والسنط والسنديان والزقوم إنها مستطيلة الشكل ومحيطها ألف خطوة، وفيها سبعمائة بيت من القصب، وفيها جامع ولها باب يتجه إلى الشرق، وقناطر بابها من خشب شجر الدوم، ولا أثر للحجر فى بناء هذه القلعة، وفى المدينة ثلاثة آلاف بيت من الحصر والسبعة جوامع وأحد عشر دكاناً للبوزه وليس فيها حدائق ولا حمام ولا خان ولا سبيل ولا مدرسة، ولكن فيها كثير من البساتين، وكان يسكن فيها قديماً وزير ملك الفونج، والآن يسكن فيها جرجيس خان أخو ملك الفونج إن له أربعين ألف جندى

(١) قِحَّةٌ: وَقِحٌ يَوْقِحُ. وَوَقِحٌ يَوْقِحُ وَوَقِحًا وَوَقَاحَةً وَوَقِحَةً قَلَّ حَيَاةً وَاجْتِرَا عَلَى اقْتِرَافِ الْقَبَائِحِ وَلَمْ يَعْأ بِهَا. وَيَقَالُ: رَجُلٌ وَوَقِحٌ وَامْرَأَةٌ وَوَقَاحٌ، وَهُوَ وَقِحٌ وَهِيَ وَقِحَةٌ أَيْضًا. وَالْجَمْعُ وَقِيعٌ.

وستمائة ألف من الرعايا، وهو ملك على البرابرة، وقد شرفت بلقائه، وقد قدمت الغنائم التي أرسلها كور حسين وكانت في موقعة فردانية، وبعد السلام عليه سأل عن حسين خان ولقد نقلت الأنباء وسجدت شاكرًا، كما حملت له هدايا ملك البربرستان فسرُّ لذلك كما أهدى إلى قارورة من الشراب المعطر، وقميص وسراويل إلا أنه غاية في البله، وقد أتينا جرجيس خان فلما شاهدنا قام واختبأ في ركن ونادى الترجمان فقال لي الترجمان (يقول جرجيس خان لماذا هؤلاء بيض البشرة هكذا لعلهم جاءوا يشتكون من بيض وجوههم لأنصفهم منه؟) وقد نقل إلى الترجمان هذه البلاهة، ف وقعت في حيرة شديدة، فندمت على تجولي في بلد فيها ثمانية عشر ملكًا وقرى لا حصر لها لاني سمعت هذا الكلام، ولكني بدأت أتكلم فقلت للترجمان (نحن من عبيد سلطان مكة والمدينة وملك ملوك العرب والعجم والروم والقسطنطينية القيصرية السلطان محمد خان، ونحن تحت حكمه ونسكن فوق ترابه وبأمر الله تعالى نعود إلى بلادنا ولذلك فوجوهنا بيض أما أنت وأنتم أولاد حام بن نوح في بربرستان وفونجستان وسودان وبغه نسقستان وجزيرة مصر، إنهم سود الوجوه والشعور والعيون، فالله خلقكم سودًا كما خلقنا بيضًا، وإلا فإن جلد وجوهنا إن سلخ فإنه سيسيل منه الدم ثم قلت إن الله تبارك وتعالى هو الذي بيض وجوهنا إنه على كل شيء قدير، وقلت ما قلت واعظًا، وقد أخذ العجب كل مأخذ من ترجمان جرجيس خان واتجه بالخطاب إلى من بجانبه قائلاً: (أرأيت قوماً بهذه الغرّة، زادك الله عمراً يا خان جرجيس لقد رأيت في مصر كذلك بلهاء، ففي هذه الديار تبدو الشمس فلا قيظ لديهم) فشرد عنى عقلي، ونحمد الله على أنه لم يتحرك وهو ذاهب العقل ثم قام وقدم علىّ فقمتم ووقفت ثابت القدم، ولكن كنت أنظر إلى الخدم وهم مسلحون، وقال لي «أى ثياب تلبس؟» وقال لي «حُلُّ سراويلك»، وألح في ذلك إلحاحًا شديدًا، وقال: «فلتحل سراويلك لنشاهد إن كان جسدك مثل وجهك؟» فطاش صوابي وحسرت عن ذراعي ليشاهدهما؛ إلا أنه لم يقنع بذلك وقال: «لا بد أن تحل حزامك؟» فكلفني ما لا يطاق، فامتلاتُ غضبًا وخفت أن يطهونى في الشمس، فجعلت أصيح وأقول أنا من الروم، وقد أتيت من دنقلة، وكلهم لم يقنعوا بهذا وحلوا

حزامي وعروني من ثيابي، وقالوا: «سوف نستولى على ما لك من مال»؛ ثم قالوا: «كنا نظن أنك تحمل سلاحاً في حزامك»، ثم لم يبت أخو الخان ببنت شفة، وجلس في مكانه وابتسم ثم ألحَّ في الرجاء طالباً مني أن أبقى، وتكلم بكلام ونطق ببعض كلمات، وطلب المذرة، وقال إننا طيلة عمرنا لم نشاهد رجلاً غريباً مثلك، وطلب مني أن أقبل يده، وقال فلترفع العمامة عن رأسك لنرى علامة في رأسك للجنون، فقلت إن عمّامتنا هكذا فنحن مجاهدون في سبيل الله، وفي رأسنا علامة لذلك ندفن بها فنحن لا نحل عمّامتنا، وكان هذا من جوابي، فأخرج من منطقتة عطرًا وأهداه لي، وقدم إلى عودًا وعقيقتين ومرجان كما أهدى إلى فتاتين سمرائين، وثمانية من العبيد السود كما أهديت إليه فيلاً عظيماً فسُرُّ لذلك سروراً عظيماً، أما أنا فكنت أعظم منه سروراً، فإن هذه الفيلة تعتلف كل يوم حمل مائة من الإبل وكأنها تشرب نصف ماء النيل، ثم في اليوم الثالث ودّعته ثم ارتحلنا على شاطئ النيل إلى فونجستان، وسرنا اثنتي عشرة ساعة، وبلغنا قلعة عطشان.

وصف قلعة عطشان

إنها تقع على الضفة الغربية للنيل وهي مستديرة الشكل، وبها جامع وستمائة بيت من القصب، أما حاكم هذه القلعة فرومى اسمه قره على جلبي، وهو ولد لام حبشية وبينما كان يمشى إلى مدينة زيلع من الحبشة وقع أسيراً لدى الفونج وهو في صباه، ولم يطلق سراحه من الأسر منذ خمسين عاماً، وهو رب أسرة، وعلى خلق عظيم ومتصوف، ولقد شاهدنا جامع المدينة وأسواقها السبع والمغنيات والموسيقيين في حانات البوزة، وفي البساتين التي في خارج هذه المدينة، الشامم والبطيخ ثم مضينا بعد ذلك لـ لقد تجولت في كل البلاد وتجولت في بلاد الزنوج خصوصاً، وجزت خلال الطرقات، وبينما كنت في بستان هذه المدينة كان الفصل فصل البطيخ ولم نشاهد هناك جياداً، ولكننا سمعنا زمزمة بكتاشي، ووقفت وقدم على اثنان من البكتاشية لهما سحنة القلندرية وهما كما ظهر أمامنا بعض الصوفية، وبالسؤال دللنا على الطريق، وبعد أن سلمنا أمسك خدامنا من البربر بلجم خيولنا، وجلسوا، فأمسكت بلجام خيول هؤلاء الصوفية ثم مضينا.

فى وصف وحيد القرن

للوزراء فى الروم جيداً مثل دابة الأرض، وهى جيداً ضخمة الجثة كثيرة اللحم والشحم، وأما وحيد القرن فجلده يشبه جلد العجل ولكن من أذنيه إلى ذيله شعر أسود ورأسه كراس الحصان، وعينه كالتفاح، ومستديرة وكحيلة، وله أذنان كالحصان، وفى مقدمته قرن وهو غاية فى الغلظ وهو مستدير الطرف، وطول جسمه خمسة أشبار وأذناه واسعتان وأسنانه كأسنان الحصان، ولكن له ستان على الجانبين بارزتان تبدوان كأنهما سنّ رمح، وعنقه قصير للغاية، وعنقه وكتفه يشكلان كتلة واحدة، وله شعراً موفور على كتفيه وقوائمه تشبه قوائم الجاموس، وهى قصار كما أن حوافره مشقوقة وذيله فى غلظ ثلاثة أذيال للفرس، وشعره معقوص، وقرنه قوى وهو من القوة بحيث أنه إذا نطح به الفيل بقى فى جثة الفيل لأنه قرن منحرف أنه ينطح الفيل فى عينيه وقوته تكمن فى قوائمه.

التعريف بدابة الأرض

تسمى فى العربية البغل فلا فرق بينها وبين البغل، ولكن فى أعلى أذنيها قرنان أسودان معقدان، وطرفهما كالمبضع وحوافرها مشقوقة وفى المذاهب الأربعة حلال أكلها، وهى سريعة العدو إلى حد بعيد، وكأنها غزال وتلد مرتين فى العام، والمولعون بها يركبونها ويجعلون لها لجاماً، ويضعون الإكاف على ظهورها، فلما رأيناها دخلنا سرور عظيم، ووجدنا لحم الإبل ولحم الدجاج، وقلنا إن خير الطعام ما حضر، وسألنا عن أصل وجودها فقيل لنا: كنا ثلاثة إخوة فى سفينة تسير بنا من الهند إلى الحبشة، وبينما كانت سفينتنا تسير بنا استولى كفار البرتغال على سفينتنا، وأوقعونا فى الأسر وحبسونا فى مخزن السفينة، وجرى القضاء بأن يموت أخ لنا فمشوا لحم جثته وأطعمونا منه، فأكلنا من لحم أخينا طوال شهر واتفق أن تلاطمت أمواج البحر ودفعت السفينة إلى الشاطئ فتحطمت السفينة وفررنا إلى جبل مرتفع، واغتسلنا فى ماء حار وصلينا ركعتين لله شكراً، وتوبنى أخى من أكل لحم ذى روح، ولما ذكر هذا السبب أجهشنا بالبكاء، ومن الغد جاء هذا الحيوان إلينا، فأنسنا به، وقال بلسان الحال اركبا، فوصلنا بسلامة الله

على ظهر هذا الحيوان بعد سبع سنوات وبقينا بين الزوج فسخر منا هؤلاء الحمقى، وأكلنا قليلاً من الخبز وخبز الذرة وشمام وبطيخ، وشكرنا الله ولما دخلنا المدينة لم نأكل من طعامها، وقد فضحونا، فسألتهم في جراحة، لم نأكل من ثمار حديقتهم ولم تقدموا لنا شرباً من ماء نهرهم، فأى البلاد مسقط رأسكم؟ فقالوا: إن بلادنا بلاد الروم، وبالقرب من مدينة قونية، فقلت لقد رأيت بلدكم، وزرت جامع والده مولانا، وشاهدت مدرسة يعقوب وإبراهيم بك فسرا لذلك، ثم قلت لهما: يا إخوان الوفاء إذا أردتم الخروج بسلام فاتبعوني واقبلوا رفاقتي لأمضى بكم إلى مصر بسلامة الله، يدي في يديكم، فجددوا البيعة لى وقدموا لخدمنا كسرة خبز، وأصبحنا أخوة في الدنيا والآخرة، وتكلموا معي كثيراً، وانشرحت صدورهم بحديثي معهم، وغادروا البستان وبينما كنا في سيرنا جاء رجل من قلعة عطشان ودلنا على الطريق وشرفنا بصحبتهم، وسألت عن اسمها الشريف، فقال أحدهما إن اسمه نعمت الله والآخر سيد جار الله، وقالوا: إننا لا نقبل جيفة الدنيا، ولم يقبلوا أى شيء، وقالوا خذ الرفيق قبل الطريق وقطعنا المراحل في شدة القيظ، وبعد عشر ساعات سيرنا بلغنا قلعة بقيت.

قلعة بقيت

هي قلعة على الشاطئ الغربي للنيل، وهي من الخشب كما أن البيوت فيها من خشب، وبها جامع صغير مكثنا به، وسرنا في شدة القيظ وقطعنا المراحل سبع ساعات وبلغنا قلعة حلة الركابي.

قلعة حلة الركابي

تقع على الضفة الشرقية للنيل وهي من الخشب، وليس فيها جامع ولا أبنية، وسرنا على ضفة النيل تسع ساعات وبلغنا قلعة حلة الجندي ثور.

قلعة حلة الجندي ثور

يسمى حاكمها جندي ثور، وهي قلعة من الخشب، وبها ألف بيت للبربر من خشب وقصب، وبها جامع، ولا وجود فيها لثمر، وأرضها سبخة، ومن القلعة مضيئا برجالنا إلى ملك الفونج، وفي هذه الليلة أحضرنا كل هدايانا ورسائلنا وفي الصباح سرنا إلى

سنّار، وقد أعطانا والى مصر كتنخدا إبراهيم باشا جواداً وعبداً لنقدمه للملك الفونج، وهو جواد من المخمل المزركش وثلاثة قسي ملفوفة وإزار من الحرير، وقدمتها إلى خدمنا وقد تزين جميع الخدام بأحسن ثيابهم كما زينت الجياد والإبل، وقد وضعت الرسائل فى حقيبة مزينة وسرنا على ضفة النيل ست ساعات وثار الغبار علينا من عصف الرياح، وقد استقبلنا من يركبون الفيلة والإبل والحمير، وجاء ملك الفونج فى جمع وهو على ظهر فيل أبيض، وبعد السلام عزمنا على الرحيل، فبدت لنا ثمانون خيمة على ضفة النيل ومن انعكاس الشمس على المدافع بهرت عيوننا، فقال إن الملك خرج لاستقبالكم، وهو فى انتظاركم وقدّم له جميع الهدايا، ومضينا إلى قاضى بربرستان، ووقفنا أمامه ويدانا على الصدر تأدباً، وقلت له السلام عليك يا سلطان السودان فى خشوع فقال لى السلام عليكم يا خدام آل عثمان فسلمت يداً بيد وبعد ذلك مضينا إلى سماط، فطعمنا طعام الفونج وغسلنا أيدينا بالماء والصابون فى وعاء، وبعد ذلك قدم عبد أسود فى يده حق، فأخذه ومسح به يديه كما مسح وجهه ففاحت رائحة العطر فانتعشنا، وقدم إلينا العبد حقاً وفيه مسحوق أبيض ولكن رائحته ساطعة فواحة، ورائحته أشد نفاذاً من رائحة المسك والكافور فأخذنى العجب، فناديت ترجمان الفونج، وسألته عن نوع هذا العطر فذكره لى فأسرّ الترجمان بشيء فى أذن الملك، فرد الملك علينا قائلاً ليقرأ من معكم الرسائل التى أحضرتموها معكم، وفى نفس اللحظة قرعت الطبول فى الجوانب الأربعة، فقال أنا أقدم فيلاً كأنه دابة الأرض وفى القصر كان سبعة فيالين، وعشرون عبداً، وخرجنا أفواجاً كالجنود، ومضينا تسع ساعات على مقربة من مدينة سنار فى الطريق العام ورأينا رجال الملك وهم يسجدون لنا، وبناء على ظهور سنار أطلقت المدافع، وفى دخولنا فى القلعة قرعت الطبول ونفخ فى الأبواق، وحضر جميع أعيان الفونج وكان الملك جالساً على عرشه فقدمت إليه فى البداية الرسائل، وقرأ رئيس الديوان الرسائل التى بالعربية فجعل يثنى علينا الشثناء، ثناء تجاوز فيه كل حد، وقام فيه من عرشه ووضع كفى فى كفه، وطلب إلى أن أجلس على العرش فتقبل الرسائل ووزع الهدايا أمامى ونال كثيراً من القسى والسهام والكؤوس وأعجب بالسهام والقسى والكؤوس، وقال هل يرشق

أحد عدوه يمثل هذه الأشياء النفيسة فأجبه بقولى يا مولاي إن هذه النفائس تليق بك، ولأنها فى الغزوة تقضى على العدو، ولقد أدركت من ذلك أنه شجاع، فأحضرت بعد ذلك جواداً عليه بساط فسرُّ به كثيراً، ولقد فهمت لسان الحال وجعل الملك يتأمل هذا الحصان وعليه البساط مدة ساعتين فخرجنا من عنده ومنحنا داراً وبستاناً فيه الليمون والنارنج على شاطئ النيل ودخل معنا جميع خدامنا مدينة سنار فى العشرين من شهر شعبان عام ألف وثلاثة وثمانين.

وصف ولاية السودان وقلعة سنار

ومن الغد فى الصباح اجتمع المجلس ثانية، وقد سلمت الهدايا التى أرسلها معى كور حسين بك، وتناولنا الطعام بعد المجلس وكان الطعام طعامهم المعتاد والزعتر، ولديهم الكثير من النعم منها الكباب والضأن ولحم الغزال ولحم الإبل ولبن النوق بالذرة وهم لا يعرفون طعاماً غير هذا، والأرز والعدس والبقول إذا أتت من مصر وجرجا ولكن حين حل شهر رمضان طبخوا الأرز والقرع والقلقاس والقرنابيط ويقدمون فى كل يوم ألف قدر من الطعام، كما قدموا إلى خدامنا طعاماً خمسة أيام، وفى كل يوم ماتى طبق من الطعام السودانى، كما قدموا أربعمائة رغيف من خبز الذرة، ولخيولنا ماتى ربع من الذرة فى كل يوم، وفى هؤلاء القوم رأينا شاباً فقيهاً حلو الكلام أسمر اللون وجيه المنظر ومعتدل القامة وعلى رأسه عمامة بيضاء، ويرتدى قميصاً أبيض كان دائم العبادة مشغولاً بها يحضر الديوان، ويسمع للشاكين وهو يكلم فمه وأنفه، ثم يأتى وهو يستر فمه وأنفه، ثم يأتى المدعى عليه ويقف إلى جانبه، وهو يسجد ويقدم فروض الطاعة أمام الملك والقضاة، إلا أنهم على المذهب المالكى، لأن جميع أهل بربرستان والسودان على المذهب المالكى وقاضيتهم يسمى شفيح الدين، ووزيرهم يسمى فين خان، والدفتى دار يسمى دابر خان والكاتب برابى خان وحاكم المدينة يسمى سرمن، وتسمى طائفة الجند عندهم سلام وهم يملكون ثلاثمائة ألف من الزنوج المحاريين وليست لهم رواتب والله يعلم عدد الرعايا، والبرايا، وفى مصر كثير من العرايا والجساع، ولا يعرفون المرض، وهم معمرون ولهم شيخ إسلام على المذاهب الأربعة، ولهم من أهل

الإفتاء أربعة على المذهب المالكي والحنبلي، ولا وجود لمفتي على المذهب الحنفي، ولهم نقيب أشرف، ولأن بينهم سادات كرام، فإنهم يحضرون على الدوام في ديوان الملك، ولكنهم لا يبدون رأياً في الديوان ولا يلبسون ثياب الحرير، والأعيان يلبسون القمصان والعمائم البيض والفقراء منهم يمشون حفاة الأقدام، وإذا ما استحق شخص ما القتل تشاور الأعيان في أمره إما قتله وإما تبرئته، وإذا جاء النساء إلى الديوان فللملك حجرة متصلة بالديوان فيقفن وراء حاجز من القصب وهن يعرضن مظلمتهن وفي هذه البلاد يحرم على النساء أن يخرجن من بيوتهن وإذا كُنَّ سبعاً أو ثمانى فلهن دار ضيافة خاصة بهن، ويقدم إليهن الطعام والشراب من قبل الملك ويكرمهن تكريماً عظيماً، وولايتهم واسعة الأرجاء، وهي ستمائة وأربعون مدينة وألف وخمسمائة قلعة وأربعون ألف وسبعون جبل كبير وثلاثمائة صحراء وأربعون بحيرة عذبة وخمسون بحيرة أخرى مالحة، وفي أرضهم معادن كثيرة وفي صحاريهم ذهب تحت الأرض، ولديهم طعام يشبه الثعابين وهو سم زعاف، وعندما يجمعون الذهب تقفز جميع الثعابين والحيات، وتبدو الفضة ومعدن النحاس والحديد والرصاص والنفط والقطران وغبار الزجاج والكبريت، ولا وجود لمثل هذه في بلاد أخرى، كما توجد كنوز لكثير من هذه المعادن وكلها يحصل عليها مجاناً، ولكن لوجودها عند طائفة من الأغنياء، فلا يقتدر على استخراجها، والكلام على هؤلاء القوم يطول ويطول، ولهم كثير من الأحوال تشبه أحوال الخيول، ولا يمكن ذكرها وبعد ذلك بلغنا السودان.

فى بيان حد السودان

فى الشمال على بُعد أربعين مرحلة من الحبشة، ومن الشرق عشرة مراحل إلى (سلطانه بردو مبيه)، وإلى الجنوب مسيرة شهرين إلى قرمانقه والنيل ينبع من جبل القمر فى قرمانقه. وعلى مسيرة ثلاثة أشهر غربًا إلى بغه نسكى، وفى الشمال على مسيرة ست مراحل إلى حدود بلاد البربر، وأهله يختلطون بالبرابره. وعلى الجانب الشرقى للنيل على مسرى رياح الشمال على حدود مملكة علوى، إن هذه البلاد المتراحة الأرجاء فيها عجائب وعجائب، وما يلفت إليه النظر، يعجز أقلام البلغاء عن وصفها، إلا أنا نحاول ذلك جهد المستطاع وفى البلاد يهود، وقبط، وروم، ولا وجود فيها للفرنجية والفزل باش وأهل السند والهند، ولكن فيه قومًا من عبدة النار، وهم يذهبون إلى الحبشة ويعودون منها فى تجارتهم، وقد حضرنا فتح ولاية فروانكه، وفيها قوم من المجوس، وهم فى حكم السودان. وهم سمر البشرة وحمرها وصفرها، وأجسامهم نحيلة ما رأيت فيهم أحدًا عليه لحمًا وشحمًا، إن فيهم نشاط كما يحتملون شدة الحر. وهم يمضون عراة الأجسام، ولا وجود فى هذه الديار للجوخ والحريير والمخمل، ولا وجود للعملة الذهبية وقد رأوا آباءهم وأجدادهم على تلك الحال. أما ما يجلبه تجارهم فهو الإبل والغنم والعجول والجاموس وسن الفيل وقرن وحيد القرن، وتروس الفيل وخشب الساج الفونجى والصقنقور والبيغاوات، والأبنوس، والسنت، والتجارة عندهم بالمقايضة، إنهم يبيعون ويشتررون بلا مال يدفع ثمنًا للسلعة، والذهب عندهم كثير، ولكنهم يصهرونه ولا وجود عندهم لسكة لأنهم لا يعرفونها، وفى جوامعهم الكثير من الخطباء على المنابر يعظون الناس باللغة العربية، ثم بعد الخطبة يدعون لسلطان البلاد الواسعة سلطان السودان السلطان بن الخاقان بن غلام محمد خاقان ابن إدريس خاقان، ثم يدعون لمولانا السلطان محمد خان صاحب الحرمين أيد الله ملكه إلى انقراض الدوران، ويتلون آيتين وإنَّ الله وملائكته يصلون على النبى، ثم يؤذن المؤذن بأذان قيام الصلاة، ثم يصلون ركعتى الجمعة، ويخرجون من الجامع وهم لا يصلون ركعتى السنة، وهذا دأبهم منذ الزمان الطويل، ولا يمكن الزواج إلا بعلم الملك، وهم يؤذن

لهم بالرحيل إلى جميع البلاد، وهم يعدون ملكهم في منزلة النبي، وبينما يذهبون إلى الجامع أو يخرجون إلى الصيد يسلمون على الملك ويسجدون له سجود تعظيم وتكريم، ويمضون حاملين نعالمهم في أيديهم عندما يذهبون إلى الجامع مما يدل على تواضعهم الجم.

أوصاف قلعة مدينة سنار عاصمة السودان

إنها مدينة عظيمة وقلعة قديمة على الضفة الغربية للنيل في السودان وأول من بناها الملك خلحا خاقان، إنها قلعة مبنية من الحجر على شكل مربع ولكن ليس لها خندق، وفي خارجها سور من الخشب المحشو، وما شاهدناه في ولاية إسریم من قلاع صغيرة وكبيرة فما شاهدنا أكبر من هذه القلعة في شكلها وصفاتها، إنها معمورة، ومزينة لأنها عاصمة فونجستان، ومحيطها ثلاثة آلاف خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفي داخلها جامع الخاقان إدريس، وله منارة واحدة، وفي معظم القلاع التي اجتزناها جوامع بلا منائر، وبها قصر الملك وقصور الوزراء، وبها بيوت مبنية من الحجر واللبن المصنوع من طين النيل وعددها ألفا بيت من القصب وبها بيوت ذات حدائق وأخرى بلا حدائق وقصر يطل على النيل وفي القلعة حمام، وقصر الملك فيه بساتين الليمون والنانج والبلح وحدائق الورد والرياحين وبها يزدان القصر.

ولا وجود في هذه القلعة لسوق، ولكن في خارج القلعة جهة الغرب بيوتاً من القصب والحجر والخشب والحصير عددها ستة آلاف بيت، وخارجها كثير من ساكني الصحراء وهم زنوج عددهم مائة ألف، ويأمرون هؤلاء القوم بترميم القلعة إذا وجب ذلك ويحضرون لما في جزر النيل من الكرز والسنط وخشب الساج. ويعمل ذلك على ظهور الإبل، ولكن ليس لهذه القلعة حاكم مثل ما لقلع الروم من حاكم وجنود، ولكن فيها مخزن للسلاح والبارود الأسود وخمسون مدفعاً وبعض حملة البنادق، ولكنهم لا يجرون على استخدامها، إنهم قوم جنباء للغاية، وعلى أبواب القلعة إطارات من الحديد لمدافع في حجم الفيل، وإذا أخرجوا إلى القتال استخدموا هذه المدافع الضخمة بعد حملها فوق ظهور الإبل، وفي يوم رؤية الهلال ويوم العيد يطلقون هذه المدافع، وتزدان الدنيا بمصايح النفط ودوى الطبول وهم يصعدون ولولة كأنهم في احتفال ملكي.

والزواج من الحبشة والمنديية حينما يقدمون للإغارة على تلك المدينة تقصف للدفاع معلنة بمقدمهم، وفي القلعة ثمانية وسبعون ألفاً من الزوج يقون في القلعة ليكونوا مدداً للجيش، والمنديية تنخلع قلوبهم رعباً من ذلك، إنهم ليسوا مسلمين ينكرون الحشر والنشر، وخارج القلعة سبعة جوامع من الحجر، وأربعون مسجداً وثلاثمائة دكان، وهي من الدكاكين الصغيرة، والمقاهى وحانات للبوزه لا تحصى كثيرة، وهي معمورة مثل أبنية الروم والعرب والعجم وحلب، وليس فيها خان ولا حَمَام ولا سوق للين ولا مبرة ولا سبيل ولا مكتب للصبيان ولا مدارس. ففي هذه المدينة لا يوجد فيها بقلة في حجم الحجارة وترابها لطيف إلى حد أنه صنع كاسات للعين خزفية منه، كما أن تربتها خصبة حيث الكيلة من الذرة تنتج خمسمائة كيلة، كما أن محصول القمح موفور، ولا اعتدال جوها زرعت حدائق فيها هنا وهناك، وفيها الليمون والتارنج ولا وجود فيها للحدائق ولكن بساتينها كثيرة للغاية وجمال نساتها وفتياتها في سواد بشرتهم، ولكنهم ليسوا غلاظ الشفاه ولا عابسى الوجوه كالزواج، وفيهم عنلرى لهن من الجمال والدلال ما يتيم القلوب، سبحان الخلاق الباقي، فلهن عيون الغزلان الكحيلية والكلام الرقيق والقوام المشوق من رآهن أخذ منه العجب مأخذه. وأهلها يتزوجون على المذهب المالكي وهذا جائز، أما نكاح المتعة فممنوع إلا أن علماءهم يبيحون ذلك فهم في كل أسبوع يتزوجون زواج المتعة، ويدفعون المهر ذراعاً من البز، وفتياتهم يسرن عراة وإذا أعطوا مرتباً قاموا بالخدمة ثلاثة أو أربعة أيام، وبعضهم يخدمون دفعاً للجوع ومعيشتهم ضنك ولكن إذا أخذهم الغضب أصبحوا شرارة من نار وفيهم عناد، وليسوا بلا أصل فهؤلاء قوم بنقلا ودنقله، وأولئك أفنو وبورنو، وقرمانقه ويغه نسكى وهكذا. إنهم ليسوا غلاظ الشفاه، وليست لهم أرجل الفيلة وجسم الغول، ولا عمالقة إن كلامهم رقيق ووجوههم جميلة وسمر البشرة وأفواهم صغيرة وأنفهم كالثمرة وأسنانهم منضدة بيضاء بين شفتين حمراوين ولهم نساء لهن عيون الغزلان وهذا من جمالهن يوقع الرجال في غرامهن ويزدانون بالخرز، والخرز عندهم جميل كما أنهم يلبسون الإزار المصرى والإسكندرى، ويلبسون ذلك من شدة البرد في الشتاء، ولكنهم

عراة فى غير فصل الشتاء، أما نساؤهم فيلبسن إزار الصعيد العالى والمرط القطنى المنقش كما يضعن فى أذرعهن الدمالج وفى أرجلهن الخلاخيل، وكلامهم بالعبرية منذ عهد إدريس.

اللغة العبرية

الأعداد فى اللغة العبرية:

تلو : واحد	اندى : اثنان	ياصقى : ثلاثة	داقى : أربعة
اووقو : خمسة	أرصىقى : ستة	لغار : سبعة	طلور : ثمانية
تافى : تسعة	راقى : عشرة.		

ومن الشعر الرائع للخاقان:

المصرع الأول:

جيجلقداتى ابله تتانى اجلى قنار قابلى جدان جنام بولاشى
(الجميل سل القوم عنه أنه روح روحى إذا ما رأيتَه قبلته)

المصرع الثانى وهذا يكون بيت:

قاسقى جمناج دال بلادى بيله بادى بقبلى مصناح
(وإذا ما احتضنته، وامتصصت شحمة أذنه وعانقت ذراعه الأسود)

البيت الثانى: المصرع الأول:

اجم جى تمناح بلمجى جلطات
(فلا تظن أنى غبى أخذنى النعاس)

المصرع الثانى:

ججلى قيطان للل لتى
(ملككت الدنيا وإذا قال لعبت بها)

البيت الثالث: المصرع الأول:

مزامى لبتى قراجى جبتى صبح بولانى قوس جلامى سلحتلى بتى
(تعشقتَه وهبته فؤادى أكفرت لذلك عشقت منذ زمان بعيد)

المصرع الثاني:

ققان شاهى قليت جاهى خنزيله جاج باتيله حاج تتلتى شاهى

(الملك الخاقان قلت ذلك فى لوم إنه يسكن روحى إنها له قربان إننى بعشقه تَمَلُّ)

وقد لحن هذا فى نغمة البياتى، وغنيت على أصول السماعى وتغنى الرجال والنساء بالأناشيد، وقرعوا الطبول وضربوا الدفوف وملثوا القرع بالحصى ودام سرورهم ليل نهار، وأكلوا البصل والثوم وشربوا البوزه وأنشدوا المريع.

أسماء أهل فونجستان

من أسمائهم إدريس وجرجيس وحمد، وهى أسماء محبوبة ومألوفة وكذلك ناصر وفونقو وأنشومبوا بمعنى سيد، فرما وعدلان بمعنى جندى، وسرهاج وبشير ودانيال ومدللا وحدللا وسلى معنى سليمان وعبد رى بمعنى عبد الرحمن وفيسان بمعنى معلم.

أسماء شاه فونجستان

طاغليته، وحجى جى، وقوره وجوضه يعنى حَفَظَه، ونوره حه وارابه وحوشه وغنيه وحليمه وماقتى وأمنى ونفيسه وشمامه ومشيقه وأشيه وسبيقه وحجه وباره وشو، وجاره يعنى جاريه وحته ومدينه واسانى وحنفة وسما ولغلم أن هذه الكلمات السابقة بمعنى أمهاتنا وأخواتنا ولكن هؤلاء النساء فقيرات للغاية، وتستر هؤلاء النساء عوراتهن بجلد الغزال والغنم والماعز، وهن يمزقن هذه الجلود قطعة قطعة كما أنهن يزين حلاتهن بالخرز، وبقية أجسامهن عارية وهن لا يلبسن ثياباً لشدة الحر، وقد جئن من دعاء نوح عليه السلام عليهن، وأنعامهم كثيرة للغاية ولكن لا وجود بينها للبغل إنهم يشربون ماء النهل ويوزه الذرة، وثمة نوع آخر من البوزه مسكر للغاية، أنهم يأكلون الذرة، كما أنهم يربون ويأكلون الغنم والمعز والجاموس والبقر والإبل والفيل ووحيد القرن والغزال ويبيض النعام والققط والنعام والأسد والنمر، وهذه الحيوانات تأتى إلى بيوتهم وبساتينهم ويصنعون من جلود الغزال والحملان وسائد لهم، والنساء يزين بيوتهن ببيض النعام، ويشربون لبن النوق المسكر خمسة أو ستة أيام، وأنه يسكر أكثر مما تسكر البوزه، ولكن

بما أن العنب لا وجود له في بساتينهم ليس لديهم شراب مسكر كالعرق الذى يصنع من العنب، وليس لديهم من المسكرات غير البوزة واللبن والسبب في أن لبن النوق لا يسكر إسكاراً شديداً أنهم يضعون فيه جذر نبات الخلفاء فيزداد اللبن سكرًا، إن هذه المشروبات المسكرة تناسب جوهم الحار ولكن شدة الحر لا تؤثر فيهم وأحمد الله أنى لم أتأثر بها، ونحن نمشى فيها كما نمشى فى أيام الإحرام عراة الرؤوس حفاة الأقدام ونحن بذلك نتبع أهل الفونج، ولم نحزن ذات يوم مع أتباعنا لأن نسيم الصبا هب فأنعش أرواحنا.

وماء النيل فى هذه البقعة ماء زلال، لأنها تقع على مسيرة شهر جنوباً وفيها من المعادن فى الأرض السبخة النفط والقطران والكبريت والحديد والزرنيخ وفى القنوات مئات الآلاف من الأفاعى والحيات والحیوانات السامة غارقة فيها ويملثون بماء النيل القرب من جلد الغزال، فيبرد ويصبح قطعة من الثلج، إلا أنهم إذا أكثروا من شرب الماء أصيبوا بالإسهال، وفى هذه الديار لا وجود للبراغيث ولا القمل ولا البق لأن جميع أهل هذه البلاد يدهنون أجسامهم بالزيت ويرقدون فى الشمس كأنهم الجاموس، والبراغيث والقمل والبق لا تبقى فى الأماكن التى فيها دهن، وهم لا يعرفون المآثم والمحارم والزنا واللواط والنميمة، وأمراضهم الطاعون وذات الجنب والفالج والرعدة الجسمية والجزام والجمرة والبرص، والحاصل أنهم لا يعرفون ما الطاعون، وهم يعدونه مرضاً عارضاً إنه فى أول أمره ضعف يصيب المريض ثم ينقطع عن الطعام والشراب ثم يموت فيدفن، إنهم لا يبكون ولا يتأهون، ولكنهم يضحكون، وقد سألت عن ذلك لماذا لا يبكون، نحن إذا أصبنا بذلك لم نر عيباً فى البكاء، فقالوا: إننا نموت جميعاً قضاءً وقدرًا.

وخلاصة القول أنهم قوم يتوكلون على الله إنهم من لم يجد عشاءه ووجد أكله، وإلا فإنه يمضى جائعاً، إنهم يصيدون سمك النيل وبه يسدون جوعتهم، وإذا وصفنا أحوال وأوضاع السودان كلها تطلَّب منا ذلك كتاباً بذاته.

علم الهيئة والإسطرلاب وربع الدائرة

وبيان ارتفاع البلاد وانخفاضها وطول أنهارها

أولاً خط الاستواء فى الإقليم الأول ويبلغ ولايات بربرستان وعلوستان ودميستان وخط الاستواء عنده يتساوى الليل والنهار، لأنه الإقليم الأول، ولكننا وصلنا إلى السودان وهو على مسيرة ثلاثين مرحلة من منطقة خط الاستواء وإقليم فى حكم مدار الجدى. وقال الحكيم بطليموس إن هذا الإقليم هو الإقليم الأول، وخط الاستواء هو الإقليم الثانى لأن فى فونجستان الليل والنهار يتساويان وإنما على مسيرة ثلاثين مرحلة منها فمضينا إلى وراء خط الاستواء فوجدنا ست عشرة درجة وخمساً وأربعون دقيقة ومدار يمر فى وسط أسوان، وإلى ما بعد المدار فلم يذكره قدماء العلماء، ولأن هذا الإقليم يخلو من العمران وشدة الحر وأثر السرطان، وقد استولى كفار البرتغال على نهاية جنوب جزيرة مصر، وبنوا القلاع على ضفة النيل كما بنوا المدن ومارسوا البيع والشراء فيها وكانت لهم ولاية بين مدار الجدى والإقليم الأوسط، ولكن لا يستحق هذا الإقليم الكتابة عنه، وعلى طرفى مصر البحر المحيط، والباقى تراب على مسيرة خمسة آلاف ميل من البحر المحيط أرضاً خالية ولكن الطيور تطير فوقه، وتعبه ونرى أناس من ملين فيه لأن الأفيونوس والمحيط يحولان دون ذلك.

ذكر الإقليم الأول

على حد قول قدماء العلماء إنه خط على الأرض من الشرق إلى الغرب وسموه الإقليم الأول ولكنه من عند الله، ولقد تجول إدريس ودانيال فى الأرض من الشرق إلى الغرب فأطلقوا على هذا الإقليم الإقليم الأول، ولما مضوا من الشرق إلى الغرب وجدوا أن عرضه اثنتى عشرة درجة وأربعين دقيقة، فقالوا إنه الإقليم الأول، ثم أطلقوا الأسماء على الأقاليم الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، ولشدة الحر لم يصلوا إلى إقليم آخر لنذكره. فبقيا عند الإقليم السابع، ولكن إقليم فونجستان وسط خط الاستواء توجد ولاية عمران وولاية الزنج وديار الحبشة وبعض المدن القريبة، ولشدة الحر

فيها لا يسكنها الإنسان فما سمياه إقليمًا، ولكن كان ولاية عمران وولاية الزنج كانتا معمورتين من قديم الزمان وسنذكرهما في موضعهما إن شاء الله .

وعلى حد قول سقراط إن الإقليم الأول الذي عبرناه هو ولاية بربرستان وعرضه أربع عشرة درجة وسبع وثلاثون دقيقة، وأطول نهار فيها ثلاث عشرة ساعة وطول الإقليم الأول هذا من الشرق إلى الغرب ألف ومائتا وخمسين فرسخًا، وعرضه مائة وأربعون فرسخًا وفيه ألف مدينة وخمسون منها زنج أهلها .

أولاً: جزيرة سرنديب وهند وصغانه وطفار وحرش وفرج آباد وأحمد آباد وديوابا ووختن في جزيرة الحبشة زيلع ومدينة مقدشو ومدينة زنج وسودان وبربرستان وفي أرض المغرب فاس، ومرانكوش وطنجه وسبته إنها رأس الأقيونوس .

وعلى حد قول بدر وقولون أن في هذا الإقليم الأول أربعين جبلاً شامخاً وثلاثين نهراً عظيماً، وكل نهر فيها كنه النيل ومضيئا في الإقليم الثاني وفي نهاية مدينتي دمياط ورشيد اللتان تطلان على بحر الروم .

زيارة ضرائح سنار عاصمة فونجستان

أولاً في المقبرة ضريح الشيخ عيسى، والشيخ بلال وحاجي فوندان، والشيخ ستوان وحاجي ملابه، والشيخ على وحاجي إدريس، والشيخ فرج عاصم، وعلى كرم الدين عدني، والشيخ جندی ابن خاقان، وجميع الملوك مدفونون في هذه المحلة، إلا أن قبورهم ليست مزينة، وهم يزورون قبورهم على أنهم ملوكهم القدامى، وقد قرأت الفاتحة لهم، ورجوت منهم البركات والله أحمد أن دعاءنا قد كان مستجاباً، ومكثنا في مدينة فونجستان أربعين يوماً وكان رمضان هذا هو الثالث والثمانون على تولى الملك وقد منحنا في العيد عيدية ثياباً مزركشة وثياباً قطنية ومبخرة من الخزف وغرارة من العود وقارورة من ماء الورد وجاريتين حبشيتين، كما منح هدايا لمن معنا وقد أرسلنا إليه فيلين وجواداً وزوجين من الأكياس بها قمصان وسراويل ودستين من الصوف وعمامة وثلاثة مآزر مزركشة، ثم جاء الملك إلى بيتنا، وتناول الطعام معنا فقد كان لنا مملوكان يجيدان

طهو الطعام، وكنا نقدم إليه فى كل ليلة من ليالى رمضان عشرات الأصناف من الطعام، وكان يطيب نفساً بتناولها كما كان يحسن إلى غلماننا وكان يفضل الكباب على غيره من ألوان الطعام، بعد ذلك جالب الطعام للإنكشارية وتُجَار الحبشة وأذن للأجاش فطلبوا المدد من الجند، وقالوا سمعاً وطاعة فجاء بالف فارس وألف راكب إبل وألفان من المشاة يحملون الحراب فتحنيت الفرصة وطلبت الإذن لى لأكون رفيقاً لهم فاستجيب لطلبى، فقيل لى عَلَى السمع والطاعة نحن لا نستغنى عنك لحظة فقد الفناك للغاية، وذلك لحמיד سجايك وبمشيئة الله سوف تتجول فى بلادنا مع هؤلاء الجنود، ومن الغد قدمنا الهدايا وهى عشرون زوجاً من قرون وحيد القرن وعشرون حمل جمل من الشعير والذرة وخبز وخمسون حربة من خشب السنديان وعشرون من تروس الفيل وعشرون زوجاً من سن الفيل وغرارة من المسك وعشر فتيات وعشرة غلمان أجاش وفى يد كل منهم صندوق وفى كل صندوق عنبر ومسك وعقيق وزبرجد وأحجار عين السمكة، وطاوس، ودفعتنا الرسوم لحاكم القلعة على ذلك وقلنا إن وزير مصر سوف يقدم من الهدايا غير ذلك.

وقد قدمنا إلى كل واحد إزاراً وعمامة وحماً من القمصان ومن الغد وصلتنا الهدايا وهى عشرون طاووساً وخمسون من المماليك السود، وخمسون فتاة سمراء، وخمسون حمل جمل من سن الفيل، وقرون وحيد القرن وعشرون ترساً للفيلة وألف زوج من السهام ومائة زوج من جلد النمر ومائة زوج من جلد الغرائق، وحمل من الذرة، ومائة حمل من مسك جلد قطة الزباد وعشرة أحمال من الأبنوس، وعشرة أحمال من خشب السنديان وحملان من الذهب وصندوق من المسك وستون شمامة من العنبر وصندوق من نبات ذكى الرائحة وصندوق من عطر البنفسج، وصندوق من دهن السكبان وحق من دهن الكبريت، وقد تقبلنا هذا كله، وفى الظهيرة وصلت هدايا كل من الكتخدا والباوين للكتخدا والحازندار والمهردار والشيخ العزيز بكرى زاده، وقد سلم الملك ذلك كله إلى أحد الرجال وقد استشرت فى ذلك واشترك الملك كذلك فى هذه المشورة وقيل

لنا إننا سنحمل كل هذه الهدايا في سفينة سنمضي بها إلى التلال وسوف تلاحظ ذلك لأننا نشق فيك، وسنكمل برأيك وتديبيرك، ومن الغد وصلت مائة سفينة من سفن النيل، وقد امتلأت في كل مرحلة بمأكولات ومشروبات، فتوكلنا على الله ومضوا لانتظارنا في قلعة إبريم، وفي يوم سابق على هذا قَدِمَ إلينا نحن والباشا كل من حملة الهدايا وراكبو الإبل ورجال الملك وثلاثة رجال من البربر من قبلنا وقد احتفظنا عندنا بما خف حملة وغلا ثمنه، وخرجنا إلى الصيد مع الملك وفي معيتنا ثلاثة وخمسون رجلاً لخدمة الملك وفي ظهيرة الغد خرج ثمانية آلاف فارس وعشرة آلاف من راكبي الإبل مع الملك من فونجستان للصيد.
